

تزفيتان طودوروف

الأدب في خطر

ترجمة : عبد الكبير الشرقاوي



دار الثقافة للنشر



رقم جلد - 0187 .

الأدب في خطر

العنوان الأصلي للكتاب :

Tzvetan Todorov
La littérature en péril
Paris, Flammarion, 2007

للمؤلف في دار توبقال

الشعرية، ترجمة شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، ط 2، 1990.

نشر هذا الكتاب باتفاق خاص مع المؤلف

تزفيتان طودوروف

الأدب في خطر

ترجمة : عبد الكبير الشرقاوي

دار توبقال للنشر

عمارة معهد التسيير التطبيقي، ساحة محطة القطار

بلفيدور، الدار البيضاء 20300 - المغرب

الهاتف / الفاكس: 022.34.23.23 (212) - 022.40.40.38 (212)

البريد الإلكتروني: contact@toubkal.ma - الموقع: www.toubkal.ma

تم نشر هذا الكتاب ضمن سلسلة
المعرفة الأدبية

الطبعة الأولى 2007
© جميع الحقوق محفوظة

لوحة الغلاف لعمل الفنان
محمد مليحي

الإيداع القانوني رقم : 2007/1857

ردمك 7-32-496-9954

تمهيد

مهما أو غلت في الصعود بذكرياتي، أراني تحيط بي الكتب. كان والدائي يمارسان مهنة قيم مكتبة، وفي البيت كثرة مفرطة من الكتب. كانا يضعان باستمرار تصاميم رفوف جديدة لاستيعابها؛ وأثناء ذلك تتراكم الكتب في الغرف والممرات، مشكلة أكداً هشة يلزمني أن أحبو وسطها. تعلّمتُ سريعاً القراءة وأخذت في النهم القصص الكلاسيكية المعدة للأطفال، ألف ليلة وليلة، وحكايات گرم وأندرسن، وتوم سيور، وأوليفر تويست، والبؤساء. ذات يوم، في سن الثامنة، قرأت رواية بأكملها؛ لاشك كنت شديد الفخر بذلك لأنني كتبت في يومياتي الخاصة: «اليوم قرأت على ركبتي جدّي، كتاباً من 223 صفحة، في ساعة ونصف»!

وأنا تلميذ في الإعدادية والثانوية، واصلت عشقي للقراءة. الدخول إلى عالم الكتاب، كلاسيكيين أو معاصرين، بلغاريين أو أجانب، الذين كنت أقرأ الآن نصوصهم الكاملة، يوفر لي دائماً هزة استمتاع: أستطيع إشباع تطلّعي، وأحيا مغامرات، وأتذوق ضروب الرّهبة والمسرّة، دون أن تنالني الإحباطات التي تترصد علاقتي بآترايي من الأولاد والبنات، الذين كنت أحيا بينهم. لم أكن أعرف ماذا أريد أن أصنع في الحياة، لكنني كنت متأكداً أن ذلك سيكون ذا صلة

بالأدب. هل سأكتبه أنا بنفسي؟ حاولت، نظمت قصائد رديئة، ومسرحية في ثلاثة فصول موضوعها حياة الأقزام والعمالقة، بل شرعت في رواية - لكن لم أخطئ فيها الصفحة الأولى. أحسست سريعاً أن تلك ليست سبيلي. ودائماً غير متيقن من الآتي، اخترت مع ذلك دون تردد، في نهاية الثانوية، مسلكي الجامعي: سادرس الآداب. دخلت في 1956 جامعة صوفيا؛ الكلام عن الكتب سيكون مهنتي.

كانت بلغاريا آنذ جزءاً من الكتلة الشيوعية ودراسة الآداب القديمة توجد في قبضة الإيديولوجيا الرسمية. كان نصف دروس الأدب علماً متعمقاً والتصف الأخر دعاية: الأعمال الأدبية الماضية أو الحاضرة تُقاس بمقياس التوافق مع العقيدة الماركسية اللينينية. كان لا بد من إظهار ما الذي في هذه الكتابات يوضح الإيديولوجيا الصحيحة - أو ما الذي ينقصها لإنجاز ذلك. ولأني لا أشارك الإيمان الشيوعي ولا تحركني مع ذلك روح التمرد، لجأت إلى موقف كان يتبناه كثير من مواطني: في العلن، إذعان صامت أو بطرف اللسان للشعارات الرسمية؛ وفي السر، حياة كثيفة من اللقاءات والقراءات المتوجهة خصوصاً نحو مؤلفين لا يمكن اتهامهم بكونهم ناطقين بلسان المذهب الشيوعي: إما لأنه كان لهم حظ العيش قبل ظهور الماركسية - اللينينية، وإما لأنهم عاشوا في بلدان كانوا فيها أحراراً في كتابة الكتب التي يريدون.

غير أنه للتوفيق في الدراسات العليا كان لابد، في نهاية السنة الخامسة، من تحرير بحث شهادة التخرج. كيف الحديث عن الأدب دون الخضوع لمطالب الإيديولوجيا المهيمنة؟ سلكت إحدى الطرق النادرة التي تتيح الهروب من التعبئة الشاملة. تلك الطريق هي الاهتمام بموضوعات دون حمولة إيديولوجية؛ وإذن، في الأعمال الأدبية، بما يتصل بمادية النص نفسها، بأشكاله اللسانية. لم أكن الوحيد الذي جرب هذا الحل: منذ عشرينات القرن العشرين، كان الشكلاونيون الروس قد مهّدوا سلفاً السبيل، وتبعهم منذئذ آخرون. في الجامعة، كان أستاذنا الأكثر إثارة للاهتمام هو، كالموقع، متخصصاً في علم العروض. اخترت إذن كتابة بحثي بمقارنة نسختين من قصة طويلة لمؤلف بلغاري، كتبت في بداية القرن العشرين، وحصرت نفسي في التحليل النحوي للتحويلات التي أجراها من نسخة لأخرى:

الأفعال المتعدية تحل محل الأفعال اللازمة، التام يصير أكثر وروداً من غير التام... وهكذا كانت ملاحظاتي تفلت من كل رقابة! وبهذا الصنيع، لن أخطر بانتهاك المحرمات الإيديولوجية للحزب.

لن أعرف أبداً كيف كانت ستستمر لعبة القط والفار هذه - ليس بالضرورة لمصلحتي. عرّضت لي فرصة الذهاب لمدة سنة «إلى أوروبا»، كما كنا نقول في ذلك العهد، أي إلى الجهة الأخرى من «الستار الحديدي» (صورة لم تكن نجد فيها أي مبالغة، لأن اجتيازه يكاد يكون مستحيلاً). اخترت باريس، التي كان صيتها - مدينة الفنون والآداب! - يهرني. ها هو المكان حيث عشقي للأدب لن يعرف حدوداً، وحيث أستطيع أن أجمع بكل حرية بين الفئات الحميمة والمشاغل العامة، منفلاً بذلك من الفصام الجماعي الذي يفرضه النظام الكلياني البلغاري.

تبدى أن الأمور أصعب قليلاً مما كنت أظن. أثناء دراساتي الجامعية، صار من عاداتي التعرف على عناصر الأعمال الأدبية المنخلصة من الإيديولوجيا: الأسلوب، التركيب، الأشكال السرديّة، باختصار، التقنية الأدبية. ولما كنت متيقناً في لحظة أولى بأنني لن أقضي سوى سنة واحدة في فرنسا، فتلك هي مدة جواز السفر الممنوح لي، كنت أريد الاستفادة من ذلك بأن أنعم كل شيء عن هذه المواضيع المهملة، المهتمشة في بلغاريا، حيث كان عيبها أنها لا تخدم جيداً القضية الشيوعية، فلا بدّ أنها ستكون مدروسة طويلاً وعرضاً في بلد تسود فيه الحرية! والحال أنه كان من العسير عليّ تبين مثل هذا التعليم في الكليات الباريسية. كانت دروس الأدب فيها متوزعة بحسب الأمم وبحسب القرون، فلم أكن أعرف كيف أعرّض على الأساتذة الذين يعيرون بعض الاهتمام للمسائل التي تهمني. لا بدّ من القول كذلك أن متاهة المؤسسات التعليمية وبرامجها لم يكن من اليسير على طالب أجنبي مثلي النفاذ إليها.

كانت لديّ توصية من عميد كلية الآداب في صوفيا إلى نظيره في باريس. ذات يوم من ماي 1963، طرقت باب مكتب في السربون (الجامعة الباريسية الوحيدة آنذاك)، مكتب عميد كلية الآداب، المؤرخ أندري آيمار. بعد أن قرأ الرسالة، سألني عماذا أبحث. أحبته أنني أرغب في متابعة الدراسات حول الأسلوب، واللغة

والنظرية الأدبيتين - عموماً - لكن لا يمكن دراسة هذه المواد في العموم! في أي أدب ترغب التخصص؟ - أحسست أن الأرض تميد تحت قدمي، فغمغمت بشيء من الإشفاق أن الأدب الفرنسي يلائمني. كنت أرى في ذات الوقت أنني أتعثّر في فرنسيتي، التي لم تكن متمكنة كثيراً في ذلك العهد. نظر إليّ العميد بترفع متعطف واقترح عليّ بالأحرى أن أدرس الأدب البلغاري مع أحد المختصين فيه، الذين لا بدّ لا تخلو منهم فرنسا.

كنت محبّطاً بعض الشيء لكنني واصلت تنقياتي، سائلاً بعض الأشخاص الذين كنت أعرفهم. وهكذا ذات يوم، قال لي أستاذ في علم النفس، صديق صديق، بعد أن سمعني أعرض متاعبي: - أعرف شخصاً آخر يهتم بهذه المسائل الغريبة، هو أستاذ مساعد في السربون ويدعى جيرار جينيت. - التقينا في دهليز معتم بشارع سرپنت حيث كانت توجد بعض قاعات الدرس؛ نشأت مودة عظيمة بيننا. فسّر لي، من بين أشياء أخرى، أن أستاذاً كان يدير حلقة دراسية في معهد الدراسات العليا، حيث يكون من الملائم أن نلتقي؛ اسمه (الذي لم أسمع به أبداً) رولان بارت.

بدايات حياتي المهنية في فرنسا ارتبطت بهذين اللقائين. قرّرت سريعاً أن سنة واحدة من الإقامة لن تكفيني وأن عليّ الاستقرار لوقت أطول في هذا البلد. سجّلت نفسي عند بارت لأنجاز دكتوراه أولى، عمل قدّمته في 1966. بعد مدة قليلة دخلت إلى المركز الوطني للبحث العلمي CNRS، حيث قضيت كلّ مساري المهني. وفي أثناء ذلك، وبتحفيز من جينيت، ترجمت إلى الفرنسية نصوص الشكلايين الروس، غير المعروفين جيّداً في فرنسا، في مجلّد عنوانه نظرية الأدب، صدر سنة 1965. فيما بعد، دائماً مع جينيت، أشرفنا، طوال عشر سنوات، على مجلة *Poétique*، تسندها سلسلة من الدراسات، وحاولنا العدول بتدريس الأدب في الجامعة لتخليصه من شبكة الأمم والقرون، وفتحته على ما يربط الأعمال الأدبية بعضها ببعض.

الأعوام التي تلت كانت بالنسبة لي سنوات اندماج تدريجي في المجتمع الفرنسي. تزوّجت، وأنجبت، وصرت كذلك مواطناً فرنسياً. بدأت أدلي بصوتي

في الانتخابات وأقرأ الجريدة، مهتماً بالحياة العامة أكثر مما كنت أفعله في بلغاريا، إذ أنني اكتشفت أن هذه الحياة لم تكن بالضرورة خاضعة للمعتقدات الإيديولوجية، كما هو الحال في البلدان الكليانية. ودون أن أسقط في إعجاب ساذج، كنت أسعد بأن أرى أن فرنسا ديموقراطية تعددية، تحترم الحريات الفردية. هذه الملاحظة بدورها كانت تؤثر على اختياري لمقاربة للأدب: لم تعد القيم والأفكار التي يحملها كل عمل أدبيّ سجيناً أغلال إيديولوجية مقررّة سلفاً. فلم يعد موجب لطرحها جانباً وتجاهلها. لقد تلاشت أسباب اهتمامي الحصري بالمادة اللفظية للنصوص. ومنذ تلك اللحظة، في أواسط السبعينات، فقدت الميل لمناهج التحليل الأدبي، وتعلّقت بالتحليل نفسه، أي بقاء مؤلفين.

من ثم، ما عاد عشقي للأدب يجد نفسه محدوداً بالتربية التي تلقيتها في بلدي الكلياني. فكان لا بدّ لي من اكتساب أدوات جديدة للعمل؛ أحسست بالحاجة إلى الاستئناس بمعطيات ومفاهيم علم النفس، والأنثروبولوجيا، والتاريخ. وبما أن أفكار المؤلفين قد استعادت كل قوتها، فقد رغبت، من أجل فهم أفضل لهم، الغوص في تاريخ الفكر المتصل بالإنسان ومجتمعاته، في الفلسفة الأخلاقية والسياسية.

وبفعل ذلك، توسّع الموضوع نفسه لعمل المعرفة هذا. الأدب لا ينشأ في الفراغ، بل في حوض مجموع من الخطابات الحية التي يشاركها في خصائص عديدة؛ فليس من المصادفة أن تكون حدوده قد تغيّرت على مجرى التاريخ. أحسست نفسي منجذباً إلى هذه الأشكال الأخرى من التعبير، لا على حساب الأدب، بل إلى جانبه. في كتابي *La Conquête de l'Amérique*، كي أعرف كيف تتلاقى ثقافات شديدة الاختلاف، قرأت محكمات الرحالة والغزاة الأسبان (الكونكستادورس) في القرن السادس عشر، تماماً مثل محكمات معاصريهم الأزتيك والمايا. ومن أجل التفكير في حياتنا الأخلاقية، انغمرت في كتابات المعتقلين المنفيين سابقاً في المعسكرات الروسية والألمانية؛ دفعني ذلك إلى كتابة *Face à l'extrême*. مراسلات بعض الكتاب أتاح لي، في *Les Aventuriers de l'absolu* مُساءلة مشروع وجودي: ذلك الذي يقوم على تسخير الإنسان حياته في خدمة الجمال. النصوص التي كنت

أقرأها، سير ذاتية، مذكرات، مؤلفات تاريخية، شهادات، تأملات، رسائل، نصوص فلكلورية مجهولة المؤلف لم تكن تشارك الأعمال الأدبية وضعية التخيل، لأنها تصف مباشرة الأحداث المعيشة؛ ومع ذلك، فإنها على غرار تلك الأعمال الأدبية، تجعلني أكتشف أبعاداً مجهولة في العالم، وتهزني وتحثني على التفكير. وبعبارة أخرى، اتسع عندي حقل الأدب، لأنه يستوعب الآن الدراسة والبحث التأملي، إلى جانب القصائد والروايات والقصص والأعمال الدرامية، هذا المجال العريض للكتابة السردية المرصودة لاستعمال عام أو خاص.

لو ساءلت نفسي اليوم لماذا أحبّ الأدب، فالجواب الذي يتبادر عفواً إلى ذهني هو: لأنه يعينني على أن أحياء. لم أعد أطلب منه، كما في الصبا، تخبيري الجراح التي قد تصيبني من لقائي بأشخاص حقيقيين؛ إنه عوّض استبعاد التجارب المعيشة، يجعلني أكتشف عوالم على اتصال بتلك التجارب ويتيح فهماً أفضل لها. لا أعتقد أنني وحدي أنظر إليه بهذه النظرة. فالأدب، الأكثر كثافة وإفصاحاً من الحياة اليومية، لكن غير المختلف جذرياً، يوسع من عالمنا، ويحثنا على تخيل طرائق أخرى لتصوّره وتنظيمه. نحن مجبولون من كلّ ما تمنحنا الكائنات البشرية الأخرى: والدانا أولاً، ثم أولئك الذين من حولنا؛ الأدب يفتح إلى اللانهاية إمكانية هذا التفاعل مع الآخرين وهو إذن يثرينا لا نهائياً. يزودنا بإحساسات لا تعوّض تجعل العالم الحقيقي أشحن بالمعنى وأجمل. ما أبعده عن أن يكون مجرد منعة، وتلهية مححوزة للأشخاص المتعلمين، إنه يتيح لكل واحد أن يستجيب لقدره في الوجود إنساناً.

اختزالٌ عبثيٌّ للأدب

بمرور الزمن، اكتشفت بشيء من الدهشة أنَّ الدور الرفيع الذي كنت أسنده إلى الأدب لم يكن الجميع يعترف به. أول ما أثارني هذا التباين كان في التعليم المدرسيّ. لم أدرّس في ثانوية بفرنسا، ولا في الجامعة إلا قليلاً؛ غير أنني، وقد صرت أباءً ما عاد بمقلدوري البقاء عديم الإحساس بنداءات الغوث التي يبعث بها أطفالي عشية الاختبارات أو تسليم الفروض. والحال أنني حتّى لو لم أجعل في ذلك كلّ طموحي، فقد أخذت أشعر بشيء من التكدر وأنا أرى أنَّ إرشاداتي أو تدخلاتي تنتج عنها درجات تميل إلى دون المتوسط! فيما بعد، اكتسبت رؤية شاملة للتعليم الأدبي في المدارس الفرنسيّة، بمشاركتي، ما بين 1994 و2004 ضمن المجلس الوطني للبرامج، في لجنة استشارية متعدّدة التخصّصات، تابعة لوزارة التربية الوطنية. هناك فهمت: إنّ فكرة عن الأدب مغايرة تماماً توجد في الأصل ليس فحسب من ممارسة بعض الأساتذة المنعزلين، بل أيضاً من نظرية هذا التعليم والتعليمات الرسميّة المؤطرة له.

أفصح الجريدة الرسميّة لوزارة التربية الوطنية (العدد السادس، 31 أغسطس 2000)، الذي يتضمّن برامج المدارس الثانوية، وخصوصاً برنامج اللغة الفرنسيّة.

في الصفحة الأولى، تحت عنوان «آفاق الدراسة»، يعلن البرنامج: «تُسهّم دراسة النصوص في تكوين التفكير حول: التاريخ الأدبي والثقافي، الأجناس الأدبية ومستويات الخطاب، تكون دلالة النصوص وخصوصيتها، الاستدلال وتأثيرات كلّ خطاب على متلقّيه». وباقي النصّ يشرح هذه الأبواب ويفسّر على الخصوص أنّ الأجناس «تُدرس منهجياً»، أو أنّ «مستويات الخطاب (مثلاً المأساوي، الهزلي)» تُعمّق في الأولى من البكالوريا، أو أنّ «التفكير حول إنتاج وتلقّي النصوص يشكّل دراسة بحدّ ذاتها في الثانوية» أو أنّ «عناصر الاستدلال» ستتمّ «مباشرتها منذ الآن بصيغة أكثر تحليلية».

يقوم مجموع هذه التعليمات إذن على خيار: الهدف الأوّل للدراسات الأدبية هو تعريفنا بالأدوات التي تستخدمها تلك الدراسات. قراءة القصائد والروايات لا يسوق إلى التفكير في الوضع الإنساني، والفرد والمجتمع، والحب والكراهية، والفرح واليأس، بل للتفكير في مفاهيم نقدية، تقليدية أو حديثة. في المدرسة، لا نتعلّم عن ماذا تتحدّث الأعمال الأدبية وإنما عن ماذا يتحدّث النقاد. في كلّ مادة دراسية، يواجه المدرّس خباراً - جوهرياً بحيث يغيب عن وعيه أغلب الأحيان. يمكن صياغته على هذا النحو، بشيء من التبسيط لغرض النقاش: أنحن ندرّسُ معرفةً تتناول المادة لتعليمية نفسها أم تتناول موضوعها؟ وإذن، في حالنا: أندرس، قبل كلّ شيء، مناهج التحليل، نوضّحها بواسطة أعمال أدبية شتى؟ أم ندرس أعمالاً تعتبر أساسية، باستعمال المناهج الأكثر تنوعاً؟ أين الغاية، وأين الوسيلة؟ ما الإجمالي، وما الاختياري؟

في المواد الأخرى، يتمّ هذا الخيار بطريقة أوضح بكثير. من جهة، يجري تدريس الرياضيات، والفيزياء، والبيولوجيا، أي موادّ تعليمية (علوم)، مع بذل الجهد في تتّبع تطوّرها. ومن جهة أخرى، يجري تدريس التاريخ، لا منهجاً للبحث التاريخي من بين مناهج أخرى. مثلاً في الثانية من البكالوريا، يرون أنّ من المهمّ إعادة إحياء لحظات القطيعة الكبرى في التاريخ الأوروبي في أذهان التلاميذ: الديمقراطية الإغريقية، شواء الديانات التوحيدية، إنسيّة عصر النهضة، وما إلى ذلك. فلا يتمّ اختيار تدريس تاريخ العقلية، أو التاريخ الاقتصادي، أو

العسكري، أو الدبلوماسي، أو الديني، ولا مناهج ومفاهيم كل واحدة من هذه المقاربات، حتى وإن جرى استعمالها عند مسيس الحاجة.

والحال أن مثل هذا الخيار يوجد في الفرنسية؛ التوجه الراهن لهذا التعليم، كما ينعكس في البرامج، هو الحسم في اتجاه «تدريس المادة التعليمية (كما في الفيزياء)، في حين أنه من الممكن تفضيل التوجه نحو «دراسة الموضوع» (كما في التاريخ). وذلك ما يشهد عليه نصّ التقديم العام الذي استشهدت به، وكذا تعليمات أخرى كثير. أنا التلميذ في الثانية من البكالوريا، يلزمني قبل كل شيء التمكن من «التحكم في المفاهيم الأساسية للجنس الأدبي ومستوى الخطاب»، وكذا «مقامات التلفظ»، وبعبارة أخرى، يلزمني تعلم أصول دراسة التسميات والتداولية، والبلاغة والشعرية. ودون القدح في هذه العلوم، يمكن التساؤل: أمن الواجب أن نجعل منها المادة الأساسية المدرّسة في المدرسة؟ كل موضوعات المعرفة هذه هي أبنية مجردة، ومفاهيم صاغها التحليل الأدبي لتناول الأعمال الأدبية؛ لا واحد منها يتعلق بما تتحدث عنه الأعمال نفسها، ومعناها، والعالم الذي تستحضره.

إن الأستاذ، في فصله، لا يمكنه، أغلب الأحيان، الاكتفاء بأن يُدرّس، كما تطلب منه ذلك التعليمات الرسمية، الأجناس الأدبية ومستويات الخطاب، وصيغ الدلالة وتأثيرات الاستدلال، والاستعارة والكناية، والتبشير الداخلي والخارجي... فهو يدرس كذلك الأعمال الأدبية. غير أننا نكتشف هنا انعطافاً ثانياً للتعليم الأدبي. آخذ مثلاً: هاهي الطريقة التي تُدرّس بها، في 2005، مادة الأدب في فصل النهائي بكالوريا من الشعبة الأدبية، في ثانوية باريسية كبرى. تُدرس أربعة مواضيع، شاسعة بالتأكيد: «النماذج الأدبية الكبرى» أو «اللغة اللفظية والصّور»، يناظرها مولفان، في هذه الحال [رواية لفروسيّة] بريسفال لكريتيان دي تروا و[رواية] المحاكمة لكافكا (في علاقة مع شريط المخرج أورسن ويلس). غير أن المسائل التي سيكون على التلاميذ معالجتها في الاختبارات، خلال السنة كما في لحظة امتحان البكالوريا، هي في غالبيتها العظمى، من نمط واحد. إنها تتناول وظيفة عنصر من الكتاب في علاقة مع بنيته الكلية، لا معنى ذلك العنصر. ولا معنى الكتاب بأكمله في علاقة مع زمانه أو زماننا. سيُسأل التلاميذ إذن عن دور هذه الشخصية، أو ذلك

الفصل، أو ذلك التفصيل في بحث [البطل] عن الكرال [الكأس المقدسة]، لا على الدلالة ذاتها لهذا البحث. وسيجري التسؤل إن كانت [رواية] المحاكمة تنتسب إلى مستوى الخطاب الهزلي أو مستوى خطاب اللامعقول، بدل البحث عن موقع كافكا في الفكر الأوروبي.

أفهم أن يغتبط بعض أساتذة التعليم الثانوي لهذا التطور: بدل الحيرة أمام كتلة تتعذر الإحاطة بها من المعلومات المتعلقة بكل عمل أدبي، فهم يعرفون أن عليهم تدريس «وظائف ياكبسون الست» و«العوامل الستة لغيريماز»، والارتجاع والاستباق، وإلى ما ذلك. وسيكون كذلك من الأسهل كثيراً، في مرحلة ثانية، التحقق من أن التلاميذ قد استوعبوا درسهم جيداً. لكن أحقاً يوجد ربح في هذا التغيير؟ أدلة عديدة تجعلني أميل إلى تصور للدراسات الأدبية وفق نموذج التاريخ لا وفق نموذج الفيزياء؛ باعتبار أن الدراسة الأدبية تقود إلى معرفة موضوع خارجي هو الأدب، بدل خفايا المادة التعليمية نفسها. أولاً، لأنه لا يوجد إجماع، بين المدرسين والباحثين في الحقل الأدبي، حول ما ينبغي أن يشكل نواة علمهم. الغلبة اليوم في المدرسة للبنويين، كما كانت للمؤرخين قبل اليوم، وكما يمكن أن تكون للمختصين في علم السياسة غداً؛ يتبقى دائماً شيء من التحكمية في مثل هذا الخيار. إن ممارسي الدراسات الأدبية اليوم ليسوا متفقين على لائحة «مستويات الخطاب» الأساسية. ولا حتى على ضرورة إدراج مثل هذا المفهوم في حقلمهم. يوجد هنا إذا شطط في السلطة.

فضلاً عن ذلك، فعدم التناظر ظاهر: إذا كان الجاهل في الفيزياء هو من لا يعرف قانون الجاذبية، فالجاهل في الفرنسية هو من لم يقرأ [ديوان بودلير] أزهار الشر. ويمكن الرهان على أن روسو، وستندال، وپروست سيظلون مألوفين لدى القراء زمناً طويلاً بعد أن يكون النسيان قد طوى أسماء المنظرين الراهنين أو تشييداتهم المفاهيمية، وإنه لنوع من غياب التواضع أن نقوم بتدريس نظرياتنا عن الأعمال الأدبية بدل الأعمال الأدبية ذاتها. نحن - متخصصين، ونقاد، وأساتذة - لسنا، أغلب الأحيان، سوى أقزام تعتلي أكتاف العمالقة. إن إعادة تمركز التعليم الأدبي حول النصوص يتطلب، وهذا مما لا شك عندي فيه، مع الأمنية الدفينة

لغالبية المدرّسين أنفسهم، الذين اختاروا مهنتهم لأنهم يحبّون الأدب، ولأنّ معنى الأعمال الأدبية وجمالها يهزّهم؛ وما من مبرّر ليكتبوا هذا الانجذاب. ليس الأساتذة هم المسؤولون عن هذه الطّريقة المتشكّفة في الحديث عن الأدب.

صحيح أنّ معنى العمل الأدبي لا ينحصر في مجرد الحكم الذاتي للتلميذ، بل يتعلق بعمل للمعرفة. وللباشرة، قد يكون من المفيد لهذا التلميذ تعلّم وقائع التاريخ الأدبيّ أو بعض المبادئ الصّادرة عن التحليل البنيوي. غير أنّه لا يمكن بأيّ حال أن تحلّ دراسة وسائل المدخل هذه محلّ دراسة المعنى، الذي هو غايتها. إنّ أسرّة البناء لازمة لتشييد البناية لكن لا ينبغي أن تحلّ الأولى محلّ الثانية: بعد أن تُبنى البناية، فمصير أسرّة البناء هو الزوال. التّجديدات التي حملتها المقاربة البنيوية في العقود الماضية مرّحّب بها شرط احتفاظها بوظيفة الأداة هذه، عوض أن تتحوّل إلى غاية لذاتها. لا ينبغي تصديق الأذهان التي لا ترى إلّا اللّونين الأسود أو الأبيض: لسنا مجبرين على الخيار بين العودة إلى المدرسة العتيقة والحداثة الخالصة: يمكن الاحتفاظ بمشاريع الماضي الجيدة دون الاصطرار لتسفيه كلّ ما يجد منبعه في العالم المعاصر. يمكن لمكتسبات التحليل البنيوي، إلى جانب مكتسبات أخرى، أن تُعين على فهم أفضل لمعنى عمل أدبي. فهي في ذاتها ليست مزعجة أكثر من مكتسبات الفيلولوجيا، العلم العتيق الذي هيمن على الدراسات الأدبية طوال قرن ونصف: فهي أدوات لا أحد يعترض عليها اليوم، لكنّها لا تستحقّ أن يستهلك فيها الإنسان جميع وقته.

ينبغي الذّهاب أبعد. لسنا فقط لا ندّرُس جيّداً معنى النصّ لو اقتصرنا على مقارنة داخلية صرف، في حين أنّ الأعمال الأدبية تحيا دائماً ضمن سياق وفي حوار معه؛ ليس فقط لا ينبغي للوسائل أن تصير غاية، ولا التّقنية أن تنسينا هدف الممارسة. بل لا بدّ من التّساؤل عن القصديّة النهائيّة للأعمال الأدبية التي نراها جديرة بالدراسة. عموماً، القارئ غير المتخصّص، اليوم كما في الأمس، يقرأ هذه الأعمال لا ليُتقنَ بشكل أفضل منهجاً للقراءة، ولا ليستمدّ منها معلومات عن المجتمع الذي أبدعت فيه، بل ليجد فيها معنى يتيح له فهماً أفضل للإنسان والعالم، وليكتشف فيها جمالاً يُثري وجوده؛ وهو إذ يفعل ذلك، يفهم نفسه فهماً أفضل.

إنَّ معرفة الأدب ليست غاية لذاتها، وإنما هي إحدى السبل الأكيدة التي تقود إلى اكتمال كلِّ إنسان. والطريق الذي يسلكه اليوم التعليم الأدبي الذي يدير ظهره لهذا لأفق («هذا الأسبوع درست الكناية، والأسبوع المقبل سنمرّ إلى التمثيل»)، يجازف بأن يسوقنا نحو طريق مسدود. دون الحديث عن أنَّ من العسير عليه أن يُفضي إلى عشق للأدب.

ما وراء المدرسة

كيف حدث أن صار التعليم لمدرسيّ للأدب على ما هو عليه؟ يمكن أولاً أن نقدم لهذا السؤال إجابة بسيطة: ذلك أنه يعكس تحوّلاً في التعليم العالي. إذا كان أساتذة الفرنسية في المدرسة قد تبّنوا، في غالبيتهم العظمى، هذا المنظور الجديد، فذلك لأنّ الدراسات الأدبية قد تطوّرت بالتوازي في الجامعة: قبل أن يصيروا أساتذة، فقد كانوا طلاباً. حدث هذا التحول جيلاً قبل هذا، في الستّيات والسّبعينات من القرن الماضي، وحدث في الأغلب تحت راية «البنوية». لقد شاركتُ في هذه الحركة؛ أئبغني لي أن أحسّ نفسي مسؤولاً عن حال المادّة التّعليمية اليوم؟

لما قدمت إلى فرنسا، في مطلع الستّينات، كانت الدراسات الأدبية الجامعية تهيمن عليها اتجاهات مختلفة جدّاً عن اتجاهات اليوم، كما أسلفت القول. إلى جانب تفسير للنصّ (وهو في الأساس ممارسة تجريبية)، كان الطّلبة مطالين على الخصوص بأن يصبّوا أنفسهم في إطار تاريخيّ ووطنيّ؛ والمتخصّصون النّادرون الذين يمثّلون استثناءً لهذه القاعدة كانوا يُدرّسون خارج فرنسا أو خارج كراسي الدراسات الأدبية. كان الطّلبة أصحاب الرّسائل الجامعية، بدل أن يتساءلوا طويلاً عن معنى الأعمال الأدبية، يقيمون جرّداً شاملاً لكلّ ما يحيط بها: سيرة المؤلّف،

النماذج الأصلية الممكنة لشخصياته، الاختلافات بين نسخ وروايات العمل الأدبي، ردود الفعل التي أثارها عند المعاصرين. كنت أحسّ بالحاجة لتعديل هذه المقاربة بمقاربات أخرى، صارت مألوفة لي بفضل قراءات بلغات أجنبية، للشكلايين الروس، ومنظري الأسلوب والأشكال الألمان (شبيتر، أورباخ، كايسر)، ومؤلفي النقد الجديد *New Criticism*، للأمريكيين. كنت أريد أيضاً ضرورة إيضاح المفاهيم المستعملة في التحليل الأدبي، بدل التصرف بطريقة حدسية خالصة؛ ولهذه الغاية، عملت، مع جينيت، على إعداد «شعرية»، أو دراسة خصائص الخطاب الأدبي.

في ذهني - اليوم كما في الماضي - أن المقاربة الداخلية (دراسة علاقة عناصر العمل الأدبي فيما بينها) ينبغي أن تكون مكتملة للمقاربة الخارجية (دراسة السياق التاريخي، والإيديولوجي، والجمالي). وستتيح الدقة المتزايدة لأدوات التحليل دراسات أكثر نفاذاً وصرامة؛ لكن الهدف النهائي يظل فهم معنى الأعمال الأدبية. كنت قد نظمت في 1969، بتعاون مع سيرج دوبروفسكي عُشيرة حول «تدريس الأدب» في سريزي لاسال. أعيد اليوم قراءة خلاصتي للنقاشات، أجدها على شيء من عدم التوفيق في التعبير (هي تدوين لمداخلة شفوية)، لكنها واضحة حول هذه النقطة. قدّمت فيها فكرة عن شعرية، وأضفت: «عيب هذا النمط من العمل، هو تواضعه، وأنه لا يذهب بعيداً جداً، فلن يكون أبداً سوى دراسة أولية، لأنه يقوم بالضبط على ملاحظة المقولات المشتغلة في النص الأدبي والتعرف عليها، لا على أن يحدثنا عن معنى النص¹».

كان مقصدي (ومقصد الأشخاص حولي في ذلك العهد) إقامة توازن أفضل بين الداخلي والخارجي، كما بين النظرية والتطبيق. لكن ما هكذا جرت الأمور. إن روح ماي 1968، التي لم تكن لها في ذاتها صلة مع توجهات الدراسات الأدبية، قد قلبت البنيات الجامعية وعيّرت عميقاً التراتيبات القائمة. لم تتوقف حركة الرقاص عند نقطة توازن، بل ذهبت بعيداً جداً في الاتجاه المضاد: المقاربات الداخلية ومقولات النظرية الأدبية هي وحدها المعتمدة اليوم.

مثل هذا التحول في الدراسات الجامعية للأدب لا يمكن تفسيره بتأثير البنيوية وحده؛ أو إن شئنا، ينبغي محاولة فهم مصدر قوة هذا التأثير. يدخل هنا في

الاعتبار التصوّر الضمني الكائن عن الأدب. فأتناء الحقبة السالفة، التي دامت أزيد من قرن، هيمن التاريخ الأدبي على التعليم الجامعي؛ أي، أساساً، دراسة الأسباب التي أفضت إلى ظهور العمل الأدبي: القوى الاجتماعية، والسياسية، والإثنية، والنفسية، التي يُفترض أنّ النصّ الأدبي صادرٌ عنها؛ أو أيضاً تأثيرات هذا النصّ، ووقعه على الجمهور، وأثره على مؤلفين آخرين. كانت الأفضلية إذن لإدراج العمل الأدبي ضمن سلسلة سببية. وبالمقابل، يُنظر بارتياح إلى دراسة المعنى. فتُعاب بعجزها الدائم عن بلوغ مرتبة العلم، وتُترك لمفسرين آخرين، لا يحظون بتقدير كبير، مثل الكتاب ونقاد الصحافة. لم يكن التقليد الجامعي يرى أولاً في الأدب تجسيداً لفكر وحساسية، ولا تأويلاً للعالم.

هذه التزعة الطويلة الأمد هي التي استعادتْها وفاقمت منها المرحلة الأحدث في الدراسات الأدبية. تفرّر الآن (كي نستشهد بصياغة واحدة من بين ألف غيرها) أنّ «العمل الأدبي يفرض مجيء نظام في انقسام مع الوضع القائم، وإثباتاً لعالم يخضع لقوانينه ومنطقه الخاصين²» بإقصاء العلاقة مع «عالم التجربة» أو مع «الواقع» (كلمات لا تُستعمل إلا بين أقواس). بعبارة أخرى، العمل الأدبي معروض باعتباره موضوعاً لغوياً مغلقاً، مكتفياً بذاته، مطلقاً.

في 2006، في الجامعات الفرنسية، هذه التعميمات المتعسفة معروضة دائماً بوصفها مصادرات مقدّسة. وكالتوقع، يتعلّم تلاميذ الثانوي العقيدة القائلة بأنّ الأدب لا صلة له بسائر العالم ويدرسون علاقات عناصر العمل الأدبي فيما بينها وحدها. وهذا، دونما شكّ، يُسهم في انعدام الاهتمام المتزايد لهؤلاء التلاميذ بالشعبة الأدبية: انتقل عددهم في بضعة عقود من 33% إلى 10% من جميع المسجّلين في البكالوريا العامة! ما جدوى دراسة الأدب إذا لم يكن سوى إيضاح للوسائل اللازمة لتحليله؟ وبالفعل، يجد طلبة الآداب هؤلاء أنفسهم في نهاية مسارهم أمام خيار غير متوقع: إمّا أن يصيروا بدورهم أساتذة للأدب أو يسجلوا أنفسهم في لائحة العاطلين.

لا تخضع الجامعة، بخلاف الإعدادية والثانوية، لبرامج عامة، فيوجد فيها إذن دائماً ممثلون للمدارس الفكرية الأشدّ تنوعاً، بل تناقضاً. لكن يبقى أنّ التزعة

التي ترفض أن ترى في الأدب خطاباً عن العالم تحتل فيها موقعاً مهيمناً. وتمارس تأثيراً ملحوظاً على توجه أساتذة الفرنسية المقبين. والاتجاه الحديث لـ «التفكيك» لا يسوق في اتجاه آخر. يمكن لمثليه أن يتساءلوا عن صلة العمل الأدبي بالحقيقة والقيم، لكن فقط ليلاحظوا - أو بالأحرى ليقرروا لأنهم يعرفون ذلك مسبقاً، فتلك عقيدتهم - أن العمل الأدبي حتماً غير متسق، فلا يتوصل إذن لإثبات شيء وهو يقوم بتشويش قيمه ذاتها. ذلك ما يستقونه تفكيك نص من النصوص. وعلى خلاف البنيوية الكلاسيكية، التي كانت تستبعد السؤال ذاته عن حقيقة النص، فإن ما بعد البنيوية يريد فعلاً فحصه، لكن قوله الذي لا يتبدل هو أن السؤال لا يمكن أبداً أن يجد له جواباً. لا يمكن للنص أن يقول سوى حقيقة واحدة، هي أن لا وجود للحقيقة أو أن بلوغها ممتنع إلى الأبد. هذا التصور بلغة يمتد حتى إلى ما وراء الأدب ويهتم، خصوصاً في الجامعات الأمريكية، علوماً لم يكن أحد في السابق يجادل في صلتها بالعالم. وهكذا، يجري وصف التاريخ، والحقوق، بل العلوم الطبيعية نفسها باعتبارها أجناساً أدبية، بقواعدها ومواضعاتها؛ ويادماجها في الأدب المفترض فيه أنه لا يخضع إلا لمتطلباته الذاتية، تصير بدورها موضوعات مغلقة ومكتفية بذاتها.

هل أنا بصدد اقتراح أن تدريس المادة التعليمية ينبغي أن يتوارى تماماً لصالح تدريس الأعمال الأدبية؟ لا، وإنما ينبغي لكل واحد منهما أن يجد الموضع اللائق به. فمن المشروع، في التعليم الجامعي، (أيضاً) تدريس المقاربات، والمفاهيم المستخدمة، والتقنيات. أما التعليم الثانوي، غير الموجه للمختصين في الأدب، بل للجميع، فلا يمكن أن يكون له نفس الموضوع: فالأدب نفسه هو الموجه إلى الجميع، لا الدراسات الأدبية؛ فمن الأولى إذن تدريس الأدب لا الدراسات الأدبية. إن أستاذ الثانوي مكلف بمهمة عسيرة: استبطن ما درسه في الجامعة لكن، بدل تدريسه، عليه تحويله إلى وضعية أداة خفية. أليس هذا مطالبة له بجهد مفرط، لم يكن أساتذته أنفسهم بقادرين عليه؟ فلا عجب إذن أن لا يتمكن من ذلك دائماً على أحسن وجه.

لا يتجلى التصور المختزل للأدب فحسب في قاعات للدراسة أو في الدروس

الجامعية؛ بل هو مُثَلِّ بغزارة بين الصّحفيين الذين يقومون بعرض لكتّاب، بل بين الكتّاب أنفسهم. أينبغي الاندهاش من ذلك؟ فهؤلاء الكتّاب جميعهم قد مروا بالمدرسة، وكثير منهم كذلك بكليات الآداب، حيث تعلّموا أن الأدب لا يتكلّم إلّا عن ذاته، وأن الطّريقة الوحيدة للاحتفاء به هي إبراز اشتغال عنصره المقومة له. وإذا كان الكتّاب يطمحون إلى تلقّي ثناء النّقد، فيلزمهم التّقيّد بمثل هذه الصّورة، مهما كانت باهتة؛ فضلاً عن أنّهم هم أنفسهم كثيراً ما ابتدأوا كتقاد. هذا التطور أكثر تميّزاً في فرنسا منه في سائر أوروبا، وفي أوروبا منه في سائر العالم. يمكن التّساؤل في الوقت ذاته إن كنّا لا نجد هنا أحد تفسيرات الاهتمام الضّئيل الذي يثيره اليوم الأدب الفرنسي خارج حدود فرنسا.

عديد من الأعمال الأدبية المعاصرة تمثّل التّصوّر الشّكلاني للأدب؛ فهي تُعنى بالبناء المبتكر، والطرائق الآلية لتوليد النصّ، والتّناظرات، والتّصاديات والتّلميعات. غير أنّ هذا التّصوّر ليس الاتجاه الوحيد الذي يهيمن على الأدب والنّقد الصّحفي بفرنسا، في مطلع القرن الواحد والعشرين هذا. يوجد تيار آخر نافذ يجسّد رؤية للعالم يمكن وصفها بالعدمية، ترى أنّ الشرّ أغبياء وأشرار، وأنّ أشكال الدّمار والعنف تُفصح عن حقيقة الوضع الشرّي، وأنّ الحياة هي طُوء لكارثة. لا يمكن بعد هذا الادّعاء بأنّ الأدب لا يصف العالم: بدل أن يكون نفيّاً للتمثيل، يصير تمثيلاً للنّفي. ولا يمنع ذلك من أن يظلّ أيضاً موضوع نقد شكلاني: لأنّ العالم المُمثّل في الكتّاب، بالنّسبة لهذا النّقد، عالم مُكتفٍ بذاته، دونما صلة بالعالم الخارجيّ، ومن السّائع تحليله دون التّساؤل عن ملاءمة الآراء المُعبّر عنها في الكتّاب، ولا عن صدق اللوحة التي يرسمها. وتاريخ الأدب يبرهن على ذلك جيّداً: من السّهل العبور من الشّكلانية إلى العدمية أو العكس، بل من الممكن ممارسة الاثنتين معاً في آن واحد.

وبدوره، يعرف هذا التيار العدميّ استثناء هامّاً، يتعلّق بالشّذرة من العالم المُتشكّلة من المؤلّف نفسه. إنّ ممارسة أدبية أخرى تصدر بالفعل عن موقف رضى عن الذات ونرجسيّة، تسوق المؤلّف إلى أن يصف بأدقّ التّفاصيل أدنى انفعالاته، وأنفه تجاربه الجنسيّة، وذكرياته الأشدّ سطحية: بقدر ما العالم متفرّ، بقدر ما الذات

جذابة! فضلاً عن أن تجريح الذات لا يدمر هذه المتعة، إذ المهم هو الكلام عن الذات - أما ما يُقال عنها فهو ثانوي. الأدب (أو بالأحرى في هذه الحال «الكتابة») ما عاد عندئذ سوى مختبر حيث يمكن للمؤلف أن يدرس ذاته متفرغاً ويحاول أن يفهم نفسه. يمكن نعت هذا النزعة الثالثة، بعد نزعتي الشكلانية والعدمية، بنزعة الأنانية *solipsisme*، باسم تلك النظرية الفلسفية التي تُصادر على أن الأنا الذاتي هو الكائن الوحيد الموجود. صحيح أن غرابة النظرية تحكم عليها بالتهميش، لكن لا يمنعها من أن تصير برنامجاً لإبداع أدبي. وأحد تنويعاتها الحديثة هو ما يُسمى «التخييل الذاتي»: يكرّس المؤلف نفسه دائماً بنفس القدر لاستحضار أطوار مزاجه، لكنّه فوق ذلك يتحرّر من كل قيد مرجعي، مستفيداً بذلك في الآن ذاته من الاستقلال المفترض للتخييل ومن المتعة المتولدة عن إضفاء القيمة على الذات.

نشوء علم الجمال الحديث

الأطروحة التي مفادها أنَّ الأدب ليس مرتبطاً بعلاقة ذات دلالة مع العالم، وبالتالي فالحكم عليه ليس له أن يأخذ بالحسبان ما يقول لنا عن ذلك العالم، ليست من ابتكار أساتذة الآداب اليوم، ولا إسهاماً أصيلاً للبنويين. هذه الأطروحة ذات تاريخ طويل ومعقد، مُوازٍ لتاريخ ظهور الحداثة. ومن أجل فهم أفضل لتلك الأطروحة، والتمكّن من النظر إليها من خارج، أريد أن استحضر هنا بإيجاز مراحلها الرئيسية³.

بدايةً، ينبغي القول إنَّ العلاقة بالعالم الخارجي مؤكّدة بقوة فيما يُسمّى عن حقّ النظرية الكلاسيكية للشعر. وبعض عبارات القدماء الممثلة لهذه الفكرة ستُحفظ وتُكرّر إلى أن تمجّها الأسماع، حتّى وإن ضاع المعنى الذي وضعه فيها مؤلفوها. وهي أنَّ الشعر، حسب أرسطر، محاكاة للطبيعة، وأنَّ وظيفته، حسب هوراتيوس، هي المتعة والفائدة. فالعلاقة بالعالم موجودة سواء من جهة المؤلف، الذي ينبغي له معرفة حقائق العالم كي يقدر على «محاكاتها»، أو من جهة القراء والسامعين الذين، بالتأكيد، يجدون فيها متعة، لكنّهم أيضاً يستمدّون منها دروساً قابلة للتطبيق على سائر حياتهم. وفي أوروبا المسيحية للقرون الأولى، يُستخدم

الشعر في الأساس لتبليغ وتمجيد مذهب يُقدّم عنه قرءة أبسط وأبلغ تأثيراً، لكن في الآن ذاته، أقلّ دقة. ولما سيتحرّر الشعر من هذه الوصاية الباهظة، سيُعاد ربطه على الفور بالمعايير القديمة. وسيُطلب منه، انطلاقاً من عصر النهضة، أن يكون جميلاً، لكنّ جماله نفسه يتحدّد بحقيقته وإسهامه في الخير. وتذكّر بيت بوالو: «لا شيء أجمل من الحق، والحق وحده معشوق.» لا شك أنّ هذه الصياغات كانت تبدو غير كافية، لكن عوض رفضها، يُكتفى بملاءمتها بالظروف.

ستقوم العصور الحديثة بزعزعة هذا التصرّو بطريقتين مختلفتين، كلتاهما مرتبطتان بالنظرة الجديدة إلى العلمنة المتزايدة للتجربة الدينية وإلى قدسنة للفنّ ملازمة لها. تقوم الطريقة الأولى على استعادة وإعادة إضفاء القيمة على صورة قديمة: الفنان-المبدع، الشبيه بالله المبدع، يُنتج مجموعات متناسقة منغلقة على ذاتها. الله في الديانة التوحيدية كائن لا متناهٍ يخلق عالماً متناهياً؛ والشاعر، بمحاكاته، يماثل إلهاً يصنع أشياء متناهية (المقارنة الأكثر وروداً تكون مع پروميثيوس). أو أيضاً، العبقرية الإنسانية، في هذا العالم، تحاكي العبقرية المطلقة، التي هي أصل عالمنا. فيتم الاحتفاظ بفكرة المحاكاة، لكنّ موقعها لم يعد بين العمل الأدبي، المنتج المتناهي، والعالم؛ إنها توجد الآن في فعل إنتاج عالم كبير هناك، وعالم صغير هنا، لكن دون أيّ التزام بالتماثل في النتائج. فما هو مطلوب من كلّ مبدع هو اتّساق إبداعه، لا تطابقاً أيّاً كان مع ما ليس بذلك الإبداع.

فكرة العمل الأدبي باعتباره عالمٌ صغيراً تعود لظهور منذ بدايات عصر النهضة عند الكاردينال نيكولا دي كيس، لاهوتي لكن أيضاً فيلسوف، كان قد كتب في منتصف القرن الخامس عشر: «الإنسان إله آخر [.] باعتباره مبدعاً للفكر وللأعمال الفنيّة.» وليون باتيستا ألبيرتي يؤكّد من جهته أنّ الفنان العبقرّي، «وهو يرسم أو ينحت كائنات حيّة، يتميّز كإله آخر بين البشر.» وسيُقال في موازاة مع ذلك إنّ الله هو أولّ الفنانين، فيؤكّد لاندينو، أفلاطونيّ مُحدّث من فلورنسا، أنّ: «الله هو الشاعر المطلق والعالم هو قصيدته.» وستفرض هذه الصّورة نفسها بالتدريج في الخطاب عن الفنون وستُستخدم لتمجيد المبدع البشري. وانطلاقاً من القرن الثامن عشر ستعود الخطاب النقديّ الوصفيّ، بفضل تأثير فلسفة جديدة، هي

فلسفة ليبنتز، الذي أدخل مفهومي الجوهر الفرد *monade* والعالم الممكن: الشاعر يمثل هاتين المقولتين، لأنه يبدع عالماً موازياً للعالم الطبيعي الموجود، عالماً مستقلاً لكن بنفس القدر من الاتساق.

الطريقة الثانية لفصم الصلة بالرؤية الكلاسيكية تقوم على انقول بأن هدف الشعر ليس محاكاة الطبيعة، ولا الإفادة والإمتاع، بل إبداع الجمال. والحال أن الجمال يتّصف بكونه لا يُفضي إلى شيء يتجاوز ذاته. هذا التأويل لفكرة الجمال، الذي فرض نفسه في القرن الثامن عشر، هو نفسه علّمة لفكرة الألوهية. فبهذه العبارات كان القديس أغسطينوس، في نهاية القرن الرابع للميلاد، قد وصف الاختلاف بين العاطفة نحو الله ونحو البشر: كل شيء وكل كائن يمكن استعماله من أجل غاية تتعالى عليه، والله وحده هو الذي ينبغي الاكتفاء بأن ننعم به، أي نحبه لأجل ذاته. لا بدّ من القول إن منظري القرن الثامن عشر، بنقلهم التمييز الأغسطيني بين الاستعمال والتنعم إلى الحقل الدنيوي للنشاطات البشرية الخالصة، لم يفعلوا سوى عكس فعل أغسطينوس نفسه، الذي كان قد نقل المقولات الأفلاطونية إلى المجال الديني. فأفلاطون هو الذي يُعرف الخير المطلق بكونه مكتفياً بذاته: والمتصف به يملك، «بطريقة تامة وشاملة، الاكتفاء الأكمل بالذات»؛ وأفلاطون هو الذي يدعو للتأمل المنزه للمثل، وهو الذي سيتم الاستناد إليه، بعد اثنين وعشرين قرناً، للدعوة إلى مثل هذا التأويل للجمال. لم يعد إذن المبدع، في حرّيته، هو الذي تتم مقارنته بالإله، بل العمل الأدبي في كماله.

ونتيجة هذه التحوّلات: في القرن لسابع عشر والثامن عشر، سيتشيد التأمل الجمالي، والحكم القائم على الذوق، وحسّ الجمال ككيانات مستقلة بذاتها. لا لأنّ ناس الحقب السالف لم يكن لديهم إحساس بجمال الطبيعة كما بجمال الأعمال الفنية؛ لكن في السالف، فيما عدا لو جعلنا أنفسنا في المنظور الأفلاطوني حيث الجمال يمتزج بالحق والخير، لم تكن تلك التجارب تشكّل سوى مظهر واحد من فاعلية تكون قصديتها الرئيسية في موضع آخر. يمكن للفلاح الإعجاب بالشكل الحميل لأداته الفلاحية، لكنّ هذه الأخيرة ينبغي أن تكون قبل كل شيء فعالة. والنّبل يثمن زخارف قصره، لكنّه ينبغي منها أولاً أن تُشرف مرتبته في أعين

الزائرين. والمؤمن مفتون بالموسيقى التي يستمع إليها في الكنيسة، وبصور الله والقديسين الذين يراهم فيها، لكن هذه الإيقاعات والرسم موضوعة في خدمة العقيدة. إن التعرف على بُعد جمالي في أشكال مختلفة من الفعاليات والإنتاج هو سمة إنسانية عامة. والأمر الجديد، المنبعث في أوروبا القرن الثامن عشر، سيكون عزل هذا المظهر الثانوي لفعاليات متعددة، وإقامته كتجسيد لموقف واحد، هو تأمل الجمال، موقف يزيد من إثارته للأعجاب أنه يستمد أوصافه من حب الله. بعد هذا، سيطلب من الفنان إنتاج أعمال مندورة له حصرياً. هذا المنظور الجديد سيتهياً في كتابات شافتسبري وهنشيسون في إنجلترا؛ وسيؤدي إلى صنع مصطلح «الإستطيقا» [علم الجمال] ذاته (حرفياً «علم الإحساس»)، سنة 1750، في مصنف سيخصه ألكسندر باومغارتنر للعلم الجديد.

الثوري في هذه المقاربة، هي أنها تؤدي إلى التخلي عن منظور المبدع من أجل تبني منظور المتلقي الذي ليس له، من جهته، سوى اهتمام واحد: تأمل أشياء جميلة. هذا التحول ذو نتائج متعددة. أولها أنه يفصل كل «فن» عن الفاعلية التي لم يكن ذلك الفن إلا درجتها العليا؛ هذه الفاعلية وجدت نفسها الآن مستبعدة الآن نحو المجال، المختلف جذرياً، للصناعة الحرفية أو إلى مجال التقنية. فالفنان، من منظور الإبداع أو الصناعة، ليس سوى صانع حرفي ذي جودة أفضل: الاثنان يمارسان المهنة نفسها بموهبة متفاوتة. غير أنه لو وضعنا أنفسنا في جهة متوجههما، فالصانع الحرفي يتعارض مع الفنان، الأول ينتج أشياء نفعية، والثاني أشياء للتأمل من أجل المتعة الجمالية وحدها، الأول ينقاد لنفعه، والثاني يظل مترفعاً عنه؛ الأول يضع نفسه في منطق الاستعمال، والثاني في منطق الاستمتاع؛ وحاصل الأمر أن الأول يظل بشرياً خالصاً، والثاني مقارباً للإلهي. النتيجة الثانية: صارت الفنون مجتمعة ضمن مقولة واحدة، بينما كان كل واحد منها، حتى ذلك الحين، مرتبطاً بممارسته الأصلية. لا يمكن للشعر، والرسم، والموسيقى أن تتوحد إلا إذا وضعنا أنفسنا في منظور متلقيها، المنتسب إلى نفس الموقف غير النفعي، المسمى منذئذ موقفاً جمالياً.

إن مصطلحاً مثل «belles-lettres» [الأدب الجميلة] لا زال يحتفظ بهذا

الارتباط مع الممارسة غير الفنية (توجد «آداب» ليست «جميلة»). وكذا بالنسبة لمصطلح «الفنون الجميلة»: إن ذكرى الفنون النفعية، أو اليدوية لا يزال قوياً. وبعد تبني المنظور الجديد، فإن صفة «جميل» لم تعد ضرورية، وستصبح العبارة حشواً، لأن مصطلح «فن» صار يتعرف الآن بطموحه إلى الجمال. إن المصنّفات القديمة عن الفن كانت في محملها موجزات عن الصنعة، وإرشادات موجهة للشاعر، أو للرسم، أو للموسيقى. غير أنه منذئذ سيكون الاهتمام بسيروية الإدراك، وتحليل أحكام الذوق، وإذن تقدير القيمة الجمالية. ويوضح تدريس الآداب، في فرنسا، هذا التحول مع مائة عام من التأخير: فبينما كان هذا التدريس حتى أواسط القرن التاسع عشر صادراً عن البلاغة (نتعلم كيف نكتب)، فإنه انطلاقاً من تلك اللحظة قد تبني منظور التاريخ الأدبي (نتعلم كيف نقرأ).

النتيجة المباشرة لهذا أن تطلبت الفنون، وقد عزلت عن سياق إبداعها، تأسيس أماكن حيث يمكن استهلاكها. بالنسبة للوحات، ستشيّد صالونات، وأروقة، ومتاحف: المتحف البريطاني يفتح أبوابه في 1733، والأوفدزي والفاتيكان في 1759، واللوفر في 1791. والتجميع في مكان واحد للوحات، التي كانت مخصصة في الأصل لأداء الوظائف الأكثر تنوعاً في الكنائس، أو القصور، أو مساكن الخواص، مقصورة الآن على استعمال وحيد: أن تكون موضوعاً للتأمل والتّمين لأجل قيمتها الجمالية وحدها. فتعكس التراتبية بين المعنى والجمال: ما كان مستحباً (جودة الأداء) يصير ضرورياً، وما كان ضرورياً (المرجعية اللاهوتية أو الأسطورية) لن يكون إلا اختيارياً. إلى حدّ أن يصير متكاً اللوحات في المتحف أو الرّواق هو ما يحول شيئاً آتياً كان إلى عمل فني: لكي ينطلق الإدراك الجمالي، يكفي أن يُعرض عليه ذلك الشيء. الترابط الآلي بين هذا النوع من المكان وهذا الشكل من الإدراك قد فرض نفسه بجلاء منذ أن جعل مارسيل ديشان مَبَوَكة الشهيرة في موضع مخصص للأعمال الفنية: لقد صارت بفضل موقعها وحده واحداً منها، في حين أنّ سيروية صنعها لا تشبه بتاتاً سيروية صنع منحوتة أو لوحة.

وبكلمة واحدة، فالحركتان اللتان حولتا في القرن الثامن عشر مفهوم الفن، أي ممائلة المبدع بإله يصنع عالماً صغيراً وممائلة العمل الفني بموضوع للتأمل الخالص،

توضّحان علمنة العالم المتزايدة في أوروبا، مع إسهامهما في قدسنة جديدة للفنّ. في تلك اللحظة من التاريخ، يجسّد الفنّ في ذات الآن حرّية المبدع وسيادته، واكتفاءه بنفسه، وتعالیه بالنسبة للعالم. فكلّ حركة من الحركتين تدعم الأخرى: يتحدّد الجمال في الآن ذاته بما ليس له، على المستوى الوظيفي، أيّة غاية عملية وبما هو، على المستوى الهيكلي، منظم بصرامة تنظيم كَوْن متناغم. وغياب القصدية الخارجية يوازنه على نحو ما كثافة القصدية الداخليّة، أي العلاقات بين أجزاء العمل الفني وعناصره. بفضل الفنّ، يمكن للفرد البشريّ بلوغ المطلق.

جماليات عصر الأنوار

حين الانتقال من منظور الإنتاج إلى منظور التلقي، تتقوى المسافة التي تفصل العمل الفني عن العالم الذي يتحدث عنه ذلك العمل ويؤثر فيه، لأنه يصير مطلوباً الآن إدراك العمل في ذاته ولذاته. هذا التطور بدوره مرتبط بالتحول العميق الحاصل في المجتمع الأوروبي في تلك الحقبة. يكفّ الفنان بالتدريج عن إنتاج أعماله من أجل راع للفنون والآداب يوصي بطلبها، ويقصد بها الآن جمهوراً يتاعها منه: فالجمهور منذئذ هو المالك لمفاتيح نجاحه. وما كان مخصصاً به قلة معدودة صار في متناول الجميع؛ وما كان خاضعاً لتراتبية صارمة، هي تراتبية الكنيسة والسلطة المدنية، يجعل الآن كل مستهلكه على قدم المساواة. إن روح عصر الأنوار هي روح استقلال الفرد؛ والفن الذي يظفر باستقلاله يُسهم في تلك الحركة نفسها. يصير الفنان تجسيداً للفرد الحر، وعمله الفني يتحرر بدوره.

إن مفكرَي القرن الثامن عشر، حين صمّموا على وضع الفن تحت حكم الجمال، لم يحاولوا مع ذلك قطعه عن صلاته بالعالم؛ لم يستحل الفن غريباً عن الحق والخير. وهم في هذا يحتذون التأويل الأفلاطوني: الجمال المادي ما هو إلا المظهر لأشدّ سطحية للجمال، إذ يُحيل بدوره على جمال الأرواح ومن ثم على

اجمال المطلق والأبدى، الذي يضم على السواء الممارسات البشرية اليومية، أي الأخلاق، والبحث عن المعارف، أي الحقيقة. وشافيتسبري، وهو أول من نقل المعجم الديني للتأمل والاكتفاء بالذات إلى وصف الفن، يقدم مع ذلك هذا الأخير باعتباره وسيلة لإدراك تناغم العالم وبلوغ الحكمة. فيستطيع إذن أن يستطرد: «الجميل متناغم متناسب، والمتناغم متناسب حق. وما هو جميل وحق معاً هو، بالتبعية، متمم وجيد⁵». إن سيرورة الإدراك، وفعل الخواص لا يستنفدان التجربة المسماة جمالية، ويقلل من ذلك أن الفن المعتبر عادة نموذجياً، أي الشعر، لا يتسبب لا للسمع ولا للنظر، بل يستنفر الذهن: جمال الشعر يعتمد على معناه ولا يمكن فصله عن حقيقته.

لم يتخل هؤلاء المفكرون إذن عن قراءة الأعمال الأدبية كخطاب عن العالم، لكنهم كانوا بالأحرى يحاولون التمييز بين طريقين، طريق الشعراء وطريق العلماء (أو الفلاسفة)، ولكليهما مزاياها، دون أن تكون إحداها شكلاً أدنى من الأخرى: طريقان يقودان للغاية نفسها، هي فهم أفضل للإنسان والعالم، وحكمة أكبر. وأحد أوائل الذين باشروا المواجهة بين هاتين الصيغتين من المعرفة سيكون الفيلسوف، والمؤرخ، والبلاغي الفذ من نابولي، جامبيتستا فيكو، الذي يميز بين اللغة العقلية واللغة الشعرية. صحيح أنه يعود بهذه اللغة الأخيرة إلى العهود الأولى للبشرية، لكنه يتصور كذلك أن الاثنين قد تكونان متوافقتين؛ وتعارضان كما يتعارض العام مع الخاص؛ كتب في العلم الجديد (1730): «من المستحيل على الإنسان أن يكون في ذات الآن شاعراً وميتافزيقياً رفيعاً؛ يعترض على ذلك العقل الشعري؛ وفعلاً، بينما تفصل الميتافزيقا الفكر عن الخواص، فالملكة الشعرية على العكس تريد غمره فيها؛ وبينما تسامى الميتافزيقا إلى الأفكار الكلية، تتمسك بالملكة الشعرية بالظواهر الخاصة»⁶.

تحديد موقع الفعلية الفنية بالنسبة للفعلية الفلسفية هو أيضاً إحدى المهام الرئيسية التي يتكفّل بها باومغارتن في مؤلفيه تأملات فلسفية عن الشعر (1735) وعلم الجمال (1750). كان من تلامذة ليبنتز، ويتصور الشعر إبداعاً لعالم ممكن بين عوالم أخرى، ويبرز المنظور الجمالي، الذي يمنح لامتياز للإدراك على حساب

الإبداع. وعلم الجمال، مثل العلم، ذو صلة بالمعرفة، لكن (عكس ما توحى به بعض العبارات) لا يتعلق الأمر بمعرفة أدنى: إنه يتنسب إلى «تُمَثِّل للعقل» ويُنتج «المعرفة المحسوسة»⁷. وهذه المعرفة يمكن لجميع الناس بلوغها لا الفلاسفة وحدهم، وهي تكشف لنا عن فردية كل شيء من الأشياء. والحقيقة التي تفضي إليها هي إذن من طبيعة مختلفة عن حقيقة العلوم: فهي لا تتأسس فقط بين الكلمات والعالم، بل تستلزم موافقة مستعملها؛ والاسم المناسب لها هو «الاحتمالية» وتأثيرها «ينتج عن الاتساق الداخلي للعالم المُبدع»: إن التجريد يدرك العام على حساب إفقار للعالم المحسوس؛ الشعر يجتذب معه ثروته، حتى لو كانت الخلاصات التي يُفضي إليها ينقصها الوضوح: ما يخسره من النفاذ، يربحه في الحيوية.

ليستينغ، المؤلف العظيم لعصر الأنوار الألماني الذي خصص عدة مؤلفات لتحليل الفنون، يُركب أيضاً بين أطروحتين. من جهة، ما يشكل نوعية العمل الفني هو أن يطمح إلى إنتاج الجمال، غير أن الجمال يتحدد بكونه تناغماً لعناصره المقومة له دون خضوع لغرض خارجي. ومن جهة أخرى، يشترك العمل الفني مع مجموع أوسع من الممارسات التي هدفها أن تبحث عن حقيقة العالم وتقود الناس نحو الحكمة. وهكذا كتب ليستينغ في اللاوكون (1766): «أرغب في أن لا نطلق اسم الأعمال الفنية إلا على تلك التي يستطيع فيها الفنان الظهور بوصفه فناناً، حيث يكون الجمال مقصده الأول والأخير. وكل عمل آخر، حيث تظهر آثار ملموسة لمواضيع دينية، لن يستحق هذا الاسم، لأن الفن لم يُصنع فيه لأجل ذاته بل ما كان إلا وسيلة مساعدة للدين، واهتم بالدلالة أكثر من اهتمامه بجمال التمثيلات المحسوسة التي اكتسب بها»⁸. في هذا المقطع المتضمن لعبارة «لأجل ذاته»، التي ربما هي أصل «الفن للفن»، يُعرف ليستينغ الخضوع لمتطلبات الجمال باعتباره السمة المميزة للفن. لكنه لا يتخلّى مع ذلك عن إدراج الفن ضمن فعاليات تمثيلية (فقد كتب: «هذه المحاكاة التي هي جوهر فنّ الشعر»)، بل معرفاً الرسم باعتباره الفن الذي «يحاكي» في المكان، بينما الشعر «يحاكي» في الزمان.

وكذا يقارن ليستينغ في فنّ المسرح في هامبورغ (1767) بين عمل الكاتب وعمل خالق يصنع عالماً متناسقاً. لكنه مستقل بذاته، «عالمٌ حيث تكون الظواهر

مترابطة في نظام مغاير لنظام هذا العالم، لكنها لن تكون أقل صرامة في ترابطها؛ حيث حوادث الفعل تتولد بالضرورة عن الشخصيات، وحيث أهواء كل منها يتطابق بدقة مع طبعه. وبهذا المعنى، يُفُلت العمل من مؤلفه الذي صار كأنه يكتب تحت إملاء شخصياته ذاتها: فحقيقتها تكمن في اتساقها. غير أن ليسينغ لا يستسلم لإغراء أن يرى في العمل الفني لعبة بناء تجد غايتها في ذاتها. «الكتابة والمحاكاة مع مقصده هو ما يميز العبقرى عن صغار الفنانين، الذين يكتبون لمجرد الكتابة ويحاكون لمجرد المحاكاة، ويكتفون بمتعة صغيرة مرتبطة باستعمال وسائلهم، فيجعلون من هذه الوسائل كل غايتهم.» الانشغال قبل كل شيء بالجمال هو ما يميز الفن عن اللافن؛ لكن الاكتفاء بهذا الهدف أو الطموح إلى غرض أعلى هو ما يميز الفن الصغير عن العظيم، والتافهين عن العباقرة: «لا شيء عظيم مما ليس بحق»⁹.

لذا يمكن لليسينغ، بعد أن احترز مُدْكَراً أن الحقيقة الشعرية ليست هي حقيقة العلماء الاختصاصيين بل هي بالأحرى تقترب من «الاحتمالية» الأرسطية، أن يثني على مؤلفيه المفضلين تحديداً لأجل الحقيقة التي يتيحون إمكان بلوغها. فما يحفل من شكسبير كاتباً مسرحياً عظيماً هو أن لديه «رؤية عميقة عن جوهر الحب»: مسرحيته أو ثيلو هي «مصنّف كامل عن هذا الجنون البائس»، الغيرة. وما تعلّمه يوريبديدس من سقراط لم يكن مذهباً فلسفياً أو مبادئ أخلاقية، بل فن «معرفة الناس ومعرفة المرء نفسه؛ ولتيقظ للإحساسات؛ وبحث وتعلق من بين كل سبل الطبيعة بأقومها وأقصرها» والحكم على كل شيء بمقتضى مقصده¹⁰. ولذلك عرف يوريبديدس بدوره كيف يكتب تراجيديات خالدة.

مجموع هذه المفاهيم سيستعيدّها وينقّحها كانط في كتابه نقد ملكة الحكم (1790)، الذي سيؤثر بدوره على مجموع التفكير المعاصر حول الفن، بإبقائه دائماً على هذا المنصور المزدوج: الجمال منزّه عن الغرض، وفي الآن ذاته هو رمز للأخلاقية. لا يمكن إثبات لجمال موضوعياً، لأنه صادر عن حكم الذوق ويكمن إذن في ذاتية القراء أو المشاهدين، غير أنه يمكن التعرف عليه في تناغم عناصر العمل وبكونه موضوعاً لتوافق.

نجد شهادة على الأثر المباشر لهذه الأفكار في اليوميات الخاصة لبنجامان

كونستان الذي أقام، صحبة جيرمين دي ستال، بقيمار في مطلع سنة 1804. كتب بتاريخ 11 فبراير: «عشاء مع رونسون، تلميذ شيلنغ. عمله حول علم الجمال عند كانط أفكار غاية في البراعة. الفن للفن، دون غرض؛ كل غرض يُفسد الفن. لكن الفن يبلغ الغرض الذي ليس له.» هذا هو الورود الأول في الفرنسية لعبارة «الفن للفن»؛ لكن فوى أنه ينبغي على الفور التمييز بين أنواع عدّة من «الأغراض»: الغرض الذي جعله الفنان لنفسه مسبقاً، بقصد إيضاحه (المعادل لأغرض التربية الدينية التي يرفضها ليستنغ)، والغرض الملازم لكل عمل فني، خصبها لأعظمها (أعمال العباقرة، التي يواجه بها ليستنغ صغار الفنانين). وحين سيكتب ربع قرن بعد هذا عن التراجم، سيوضح فكرته: «إنّ لانفعال المتشبع بالمذهب، والمستخدم لأجل عروض فلسفية، هو فهم خاطئ من جهة الفن»، لكنّ هذا لا يعني أنّ العمل لا يؤثر على ذهن قارئه: «لن يكون الغرض هو التعليم بل تأثير اللوحة»¹¹.

كونستان عدوّ للنزعة التعليمية في الأدب، غير أنّه لا يعتبره لذلك مفصوماً عن العالم: ليس محتوماً الخيار بين هذين الطرفين. إنّّه يحدّد موقع الممارسة الأدبية وسط أشكال الخطاب العامة الأخرى، كما توضّحه هذه الصفحة المؤرّخة بسنة 1807: «الأدب متّصل بكلّ شيء. لا يمكن فصله عن السياسة، والدين، والأخلاق. إنّّه التعبير عن آراء الناس حول كلّ واحدة من هذه الأشياء. ومثل كلّ شيء في الطبيعة، فهو في الآن ذاته علّة ومعلول. إن رسمه بوصفه ظاهرة معزولة، يعني عدم رسمه»¹². وبالتّيجة، لا يوجد «شعرٌ صافٍ»، كلّ شعر هو بالضرورة «غير صافٍ»، لأنّه في حاجة لأفكار وقيم، وهذه ليست ملكه الخاص. ظلّ كونستان في هذا وقتاً لأفكار رفيقته جيرمين دي ستال، التي نشرت في 1800 مؤلفاً بعنوان له دلالة: عن الأدب في صلاته بالمؤسسات الاجتماعية. تتناول فيه الأدب «في مفهومه الأوسع، أي متضمناً الكتابات الفلسفية ومؤلفات الخيال، وكلّ ما يهتم في المقام الأخير بممارسة الفكر في الكتابات، باستثناء العلوم لطبيعية»¹³. يتمّ التمييز بين أدب الخيال والكتابات العلمية أو الفلسفية، لكن ضمن جنس مشترك: فهذه وتلك متّصلة بالعالم ومؤثّرة فيه، مُسهِمة في خلق مجتمع مُتَخَيِّل يسكنه مؤلّفو الماضي والقراء الآتون.

من الرومانسية حتى الحركات الطليعية

تمكّن مجموع علم الجمال في عصر الأنوار، الذي يمثّله بدرجات متفاوتة شافيتسبري، أو فيكو، أو باومغارتن، أو ليسينج، أو كانط، أو جيرمين دي ستال، أو بنجامان كونستان، أن يحافظ على هذا التوازن غير المستقرّ: فهو، من جهة، بخلاف النظريات الكلاسيكية، قد حوّل مركز ثقل المحاكاة إلى الجمال وأكّد استقلالية العمل الفني؛ ومن جهة أخرى، لم يكن علم الجمال هذا يجهل بتاتاً العلاقة التي تربط الأعمال بالواقع: إنها تساعد على معرفته وتؤثّر بدورها فيه. الفنّ منتسبٌ دائماً لعالم الناس المشترك. وبهذا الاعتبار، فعلم الجمال الرومانسي الذي سيفرض نفسه انطلاقاً من مطلع القرن التاسع عشر، لم يأت بقطيعة متميّزة. الفنّ، في رأي الرومانسيين الأوائل - هؤلاء أنفسهم الذين تخالطهم مدام دي ستال وكونستان: الأخوان شليغل، شينينج، نوفاليس - يظلّ معرفةً للعالم. وإذا كان ثمةً جديداً، فهو في حُكم القيمة الذي يصدر عنه على مختلف صيغ المعرفة. وتلك التي يمكن بلوغها عن طريق الفنّ تبدو لهم متفوّقة على صيغة المعرفة العلمية: إنها بنخليها عن طرائق العقل المشتركة وباتخاذها سبيل الانجذاب، تمنح بذلك منفذاً لواقع ثانٍ، محظور على الحواسّ وعلى العقل، أشدّ جوهرية أو أعمق من الواقع

الأول. غير أنه ينبغي التذكير أنه في اللحظة ذاتها أخذ نفوذ العلم في النمو بطريقة مذهلة؛ فلن نحتاج إذن أن نرى الدعوة الرومانسية لا تلقى صدى مؤيداً في المجتمع المعاصر.

نظرية «الفن للفن» ذاتها، التي تطوّرت آنذاك في أوروبا كصدى للأفكار القادمة من ألمانيا، لا ينبغي الأخذ بها بالمعنى الحرفي. يمكن الاعتقاد، مثلاً، أن بودلير، الذي جعل من نفسه ناطقاً باسمها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، يرفض أن يرى في الشعر سبيلاً لمعرفة العالم، لأنه يقول: «الشعر (...) ليس موضوعه الحقيقة، لا موضوع له إلا ذاته. صيغ البرهنة على الحقيقة معايرة ولها موضع آخر. لا صلة للحقيقة بالأغنيات»¹⁴.

غير أن هذا ليس المعنى لعميق لالتزام بودلير. إنه لا يريد أن يكون شيئاً غير أن يكون شاعراً؛ ذلك لأن الكينونة شاعراً بالنسبة له مهمة تنطوي على «واجبات رفيعة». إذا كان لا ينبغي للشاعر أن يخضع للبحث عن الحقيقة والخير، فذلك لأن الشعر في ذاته حامل للحقيقة وخير أسمى من ذينك الموجودين خارجها. يظل بودلير وفياً لكانط حين يؤكد (في رسالة إلى توسنيل): «الخيال أكثر الملكات علمية، لأنه وحده يدرك التماثل الكوني»، أو حين يكتب: «الخيال سلطان على الحق» إن عمل الفنان هو من نوع معرفة العالم. ولهذا السبب يمتدح بودلير قدرته على «معرفة مظاهر الطبيعة ومواقف الإنسان. ولهذا أيضاً يطالب الرّسّامين والشعراء المعاصرين له أن يكونوا «حديثين»، وأن يُظهروا شعريتنا «في ربطات عنقنا وأحذيتنا المبرّقة»؛ وهو نفسه يطمح لتحقيق هذا البرنامج في أعماله الشعرية. هذا البحث عن الحقيقة لا يفسّر كل شيء في قصيدة (يوجد فيها أيضاً «حاجات الرّتبة، والتناظر، والمفاجأة»¹⁵)، لكنّه غير قابل للاختزال، وهو في نظر بودلير نفسه، جوهرّي.

إذا كانت مهمة الشعراء حقاً هي أن يكشفوا للناس عن قوانين العالم السريّة، فلن يعود بالإمكان القول أن لا صلة للحقيقة بالأغنيات. لكن هذا لا يعني مع ذلك أن بودلير يناقض نفسه. فالفن والشعر لهما حقاً صلة بالحقيقة، لكنّ هذه الحقيقة ليست من نفس طبيعة الحقيقة التي يطمح إليها العلم. بودلير يفكر في إحدى هاتين الحقيقتين حين يتبنّاها، وفي الأخرى حين يرفضها. العلم يطق بقضايا يكشف عن

صدقها أو كذبها بمواجهتها مع الوقائع التي تحاول وصفها. منصوق «كتاب بودلير أزهار الشر» صحيح بهذا المعنى، تماماً كمنطوق «يغلي الماء في مائة درجة»، حتى لو كانت توجد اختلافات منطقية بين هاتين القضيتين. يتعلق الأمر هنا بحقيقة تطابق أو حقيقة تلاؤم. وبالمقابل حين يقول بودلير إن «الشاعر شبيه بأمير الغيوم»، أي طائر القطرس، فمن المستحيل الفحص عن الحقيقة، لكن بودلير مع ذلك لم ينطق جزافاً، إنه يحاول أن يكشف لنا عن هوية الشاعر؛ فهو هنا يطمح إلى حقيقة كشف، ويحاول إيضاح طبيعة كائن، وموقف، وعالم. وفي كل مرة، تتأسس علاقة بين الكلمات والعالم، لكن الحقيقتين لا تختلطان وفي لحظة أخرى، يشير بودلير إلى وسيلة للتمييز بين نمطي المعرفة، واصفاً عمل الفنان: «لا يتعلق الأمر عنده بالاستنساخ، بل بالتأويل في لغة أبسط وأوضح». وبالطريقة نفسها، سيقول إن الشاعر ما هو إلا «مترجم، فاك رموز»¹⁶. فيجعل الاختلاف إذن بين الاستنساخ (أو الوصف) والتأويل.

يمكن الاستخلاص من هذا أن الفن لا يُفضي إلى معرفة العالم فحسب، بل يكشف في الآن ذاته عن وجود هذه الحقيقة ذات الطبيعة المختلفة. والواقع أن هذه الحقيقة ليست مقصورة على الفن، لأنها تشكل أفق أشكال الخطاب التأويلي الأخرى: التاريخ، العلوم الإنسانية، الفلسفة. والجمال نفسه ليس مفهوماً لا موضوعياً (إذ يمكن إثباته بفضل مؤشرات مادية)، ولا ذاتياً، أي تابعا للحكم الاعتباري لأي أحد؛ إنه بينذاتي، منتسبٌ إذن للمجموعة البشرية. والحال أن جمال نص أدبي ليس شيئاً غير الحقيقة. ذلك كان سلفاً معني بيت كيتس الشهير: «Beauty is Truth, Truth is Beauty» [الجمال حقيقة، الحقيقة جمال].

والأمر نفسه يسري على الممثلين الآخرين لمذهب «الفن للفن». فلوبير، الذي يدافع بعناد عن استقلالية الأدب، لا يغفل عن التذكير في ذات الوقت بشغفه بمعرفة العالم، المسخرة من أجل الإبداع؛ ولا عن القول إن حقيقة عمل فني غير قابلة للفصل عن كماله. «لذا فالفن هو الحقيقة ذاتها»¹⁷. وأوسكار ويلد، الممثل الأكثر حيوية للمذهب في الآداب الإنجليزية، يُكثر من العبارات الحاسمة حول استقلالية الفن؛ ومع ذلك، فهو حين يؤكد أن «الحياة تحاكي الفن أكثر مما يحاكي الفن الحياة»،

فهو لا ينكر بتاتاً الصلة بين الاثنين. الفنّ يقوم بتأويل العالم، ويمنح الشكل لما لا شكل له، بحيث إنّه ما أن يهذبنا الفنّ حتّى نكتشف مظاهر مجهولة في الأشياء والكائنات المحيطة بنا. لم يخترع [الرّسام] تيرنر ضباب لندن لكنّه كان أوّل من أدركه حسياً في ذاته وأظهره في لوحاته. فهو، على نحو ما، قد فتح عليه عيوننا. والأمر نفسه يسري على الأدب: بلزاك «يخلق» شخصيات أكثر ممّا يصادفها، لكن ما أن يخلقها حتّى تدخل المجتمع المعاصر، ومنذئذ، لا نكفّ عن معاشرتها. الحياة في ذاتها «فاقدة للشكل بصورة رهيبية». ومن هذا الغياب ينتج دور الفنّ: «وظيفة الفن هي أن يخلق، انطلاقاً من المادّة الخام للوجود الحقيقي، عالماً يكون أعجب، وأدوم، وأكثر حقيقة من العالم الذي تراه أعين عامة البشر»¹⁸. والحال أن خلق عالم أكثر حقيقة يستلزم أن لا يقطع الفنّ صلته بالعالم.

لم تحصل القطيعة الحاسمة إلا في مطلع القرن العشرين. وهي ناتجة من جهة عن تأثير أطروحات نيتشه الجذرية، التي تضع موضع السّؤال الوجود ذاته للوقائع معزولة عن تأويلاتها ووجود الحقيقة، أيّاً كانت. انطلاقاً من هذه اللّحظة، لم يعد طموح الأدب للمعرفة غير مشروع فحسب، بل يجد خطاب الفلسفة والعلم نفسه موسوماً بنفس الارتياب. هذا الموقف الجديد من الفنّ يلتقي في الآن ذاته بتطرّف بعض مؤلّفي القرن الثامن عشر، الذين لم يشايعهم معاصروهم. كما هو حال فينكلمان حين يقول: «هدف الفنّ الحقيقي ليس محاكاة الطّبيعة بل إبداع الجمال» مستبعداً بذلك كلّ بُعد معرفي للعمل الفنّي. وكذا حين يكتب كارل فيليب موريتز: «بقدر ما يكون جسداً ما جميلاً، فلا ينبغي أن يعني شيئاً، ولا يتحدّث عن شيء خارج عنه؛ لا ينبغي أن يتحدّث، بفضل سطوحه الخارجيّة، إلّا عن نفسه، وكنونته الداخليّة، ينبغي أن يصير دالاً بنفسه»¹⁹، ويُعرّف العمل الفنّي في الآن ذاته بخضوعه المقصور على متطلّبات الجمال، فهو يُقصي أيّ سؤال مرتبط بالصلة التي يُقيمها ذلك العمل مع العالم.

يعود هؤلاء المنظّرون بصنيعهم هذا، للسقوط في التّزعة الواحديّة المميّزة للجماليّة الكلاسيكيّة، التي كانت تريد تفسير كلّ شيء بواسطة مبدأ واحد، هو المحاكاة، ما عدا أن المبدأ الجديد الوحيد الآن يُسمّى الجمال. والتعقيد الذي تراءى

في القرن الثامن عشر والتاسع عشر قد ضاع من جديد، وهذا الضياع يُترجم على الفور في الحقل الأدبي نفسه، حيث ستحصل قطيعة غير معهودة حتى ذلك الحين. ومنذئذ، ستُحفر هوة بين الأدب الجماهيري، وهو إنتاج شعبي على اتصال مباشر بالحياة اليومية لقراءه؛ وأدب النخبة، الذي يقرأه المحترفون - نقاداً، أساتذة، كتاب - الذين لا يهتمون إلا بالإنجازات التقنية لمبدعيه وحدها. في ناحية، النجاح التجاري، وفي الناحية الأخرى، المزايا الفنية الخالصة. ويتم كل شيء كأن التعارض بين الاثنين أمرٌ طبيعي، إلى حد أن الاستقبال الإيجابي الذي يُخصّ به عدد كبير من القراء كتاباً يصير علامة على تهافته على مستوى الفن ويشير ازدياد أو صمت النقد. ويبدو أن العهد الذي كان فيه الأدب يعرف كيف يُجسّد توازناً حاذقاً بين تمثيل العالم المشترك وكمال البناء الروائي قد ولى وانقضى.

التصور الجديد سيظهر في وضوح النهار لدى الحركات المسماة «طليعية» في مطلع القرن العشرين (التي تمثل نوعاً فرعياً لما يتم تعريفه بـ «الفن الحديث»). تجلّت هذه الحركات للمرة الأولى في روسيا حوالي 1910: تلك بدايات التجريد في الرسم، والابتكارات المستقبلية في الشعر. صار مطلوباً من الرسم تناسي العالم المادي وأن لا يرضخ إلا لقوانين الرسم الخاصة به. فيكتب الرسّام ميخائيل لاريونوف، مبدع «الشعاعية»، في بيان سنة 1913: «الأشياء التي نراها في الحياة لا تلعب أي دور في اللوحة الشعاعية. وعلى العكس، ينجذب الاهتمام لما هو جوهر الرسم ذاته: تركيب الألوان، وتركيزها (...). نرى هنا بداية التحرّر الحقيقي للرسم، وحياته من مجرد قوانينه الخاصة، الرسم هدفاً في ذاته، بأشكاله المخصوصة، ألواناً ورنات». وكازيمير ماليفيتش، مؤسس «السّموية»، يقول من جهته في 1916 إنه ينبغي اعتبار «الرسم عملاً له غايته الخاصة به».

صحيح أن لوحات كاندينسكي التجريدية تحافظ على صلة بالعالم، لأن الأشكال في اللوحة تشير إلى مقولات الدّهن؛ كذلك تهدف مربّعات، ودوائر، وصلبان ماليفيتش، بعد إزاحة المظاهر «الخادعة» المعروضة للبصر، إلى كشف النظام الكوني الحقيقي. غير أنه يبقى مع ذلك أن العالم الظاهراتي، المتبدّي لأعين الجميع، لم يعد داخلاً في الاعتبار. وفي اللحظة ذاتها، تجعل «الأشياء الجاهزة»

ready-made لديشان من العبث كل بحث عن المعنى والحقيقة. وفي الشعر، يطمح المستقبلون إلى تخليص اللغة من صلتها بالواقع، وإذن بالمعنى، فيخلقون لغة «ماوراء ذهنية». يدافع فيليمير خلينكوف عن «الكلمة المستقلة»، و«اللفظ من حيث هو لفظ»، بل عن «الحرف من حيث هو حرف». ويكتب بيندكت ليفشتس في مقاله «تحرير الكلمة» (1913): «شعرنا (...) لا يجعل نفسه إطلاقاً على أي صلة بالعالم»²⁰. التواصل بين وعي الأشخاص، القائم على وجود عالم مشترك ومعنى مشترك، يُخلى المكن للتجلي الخالص للفرد.

كان لمذابح الحرب العالمية الأولى وعواقبها السياسية تأثيرٌ مردوجٌ على الممارسات الفنية كما على الخطابات النظرية التي تقوم بتحليلها. في الأنظمة الكليانية التي نشأت عقب الحرب، في روسيا، وإيطاليا، وبعد ذلك في ألمانيا، لكن أيضاً، بصورة أكثر هامشية، في بلدان أوروبية أخرى، ستوجد إرادةٌ لتسخير الفن في خدمة مشروع يوتوبي من أجل صنع مجتمع جديد كلياً وإنسان جديد. وتتطلب الواقعية الاشتراكية، وفن «الشعب»، والأدب الدعائي الحفاظ على صلة قوية بالواقع المحيط، وعلى الخصوص، الخضوع للأهداف السياسية الحالية، المناقضة لكل إعلان عن الاستقلال الفني وكل بحث فردي عن الجمال. ينبغي للأدب، كما تتطلبه الجماليات الكلاسيكية، الإمتاع (قليلاً) لكن على الخصوص، التعليم. سيستجيب عدد مهم من الفنانين بحماس لهذا المطلب، يضاعف من انضوائهم الطوعي أن كل أمانهم معقودة على الثورة.

وفي ذات الوقت، لكن في أماكن أخرى، هناك حيث تسود حرية التعبير، سيتم خوض معركة ضد هذه التطاولات على استقلالية الفرد وسيتم التأكيد على أن الفن والأدب لا يُقيمان أي علاقة ذات معنى مع العالم. هذه هي المسألة المشتركة عند الشكلايين الروس (الذين حاربهم النظام البلشفي وسرعان ما قمعهم)، وعند المختصين في الدراسات الأسلوبية أو «المورفولوجية» في ألمانيا، وعند أتباع مالارمي في فرنسا، وأنصار النقد الجديد *New Criticism* في الولايات المتحدة. كل شيء يتم وكأن رفض تسخير الفن والأدب للإيديولوجيا كان يتسبب حتماً في القطيعة النهائية بين الأدب والفكر؛ وكأن رفض نظريات «الانعكاس» الماركسية

يتطلب تلاشي كل صلة بين العمل الفني والعالم. يونوبيا البعض تقابلها شكلاية الآخرين؛ وفضلاً عن ذلك، فهؤلاء وأولئك يودّون تقديم خصومهم باعتبارهم البديل الوحيد لوجهة نظرهم. هذه الشكلاية تقترن سلفاً بعدمية، تغذيها معاناة الكوارث التي تميّز التاريخ الأوروبي في القرن الماضي.

ها نحن قد، عدنا لحاضر. تميّز المجتمعات الغربية في نهاية القرن العشرين ومطلع الواحد والعشرين بالتعايش السلمي تقريباً بين إيديولوجيات مختلفة، وأيضاً بين تصورات عن الفن متنافسة. يوجد فيها دائماً مشايعو النزعة اليوتوبية، كم يوجد أتباع الجماليات الإنسيّة لعصر الأنوار. لكن يبقى مع ذلك أن ممثلي ثالث الشكلاية-العدمية-الأنانية، رغم استنادهم إلى الرّفص وقلب الأوضاع، على الأقل في فرنسا، يحتلون مواقع مهيمنة إيديولوجياً. فلهم الأعلبية في هيئات تحرير الجرائد الأدبية، وبين مديري المسارح المدعومة أو المتاحف. وعندهم أن الصلة الظاهرية للأعمال الفنية بالعالم ما هي إلا وهم. فإذا ما تمّ عرض لوحات فتان تمثيلي يرسم أشكال العالم المحسوس (مثل بونار)، يتمّ تحذير الجمهور الساذج، فيؤكد فهرس معرضه في 2006 أن «البرهنة هنا هدفها أن تكشف عن موضوعه الحقيقي، أي الرسم، فيما وراء الموضوعات الذرائع». وإذا ما تمّ التسليم بأن عملاً يتحدث عن العالم، فالمطلوب على أيّ حال هو أن يستبعد «العواطف الطيبة» ويكشف لنا عن الفضاء النهائية للحياة، وإلا سيجازف بالظهور بمظهر «غباء لا يُطاق». أو، أسوأ من ذلك، أن ينتسب إلى الأدب «الشعبي»، ذلك الأدب الذي يصنع صيته القراء أكثر من النقد. حقاً يتمكن بعض المؤلفين من أن يفرضوا أنفسهم على اهتمام العموم في حين أنهم لا يتطابقون مع هذا النموذج؛ وكذا، حتى نبقي دائماً في فرنسا، فالكتب الآتية من الخارج، وخصوصاً من قارات غير أوروبا، ليست من نوع هذه الذهنية. لكن يبقى أن الحضور القوي في المؤسسات، ووسائط الاتصال، والتعليم لهذا التصور على الطريقة الفرنسية ينتج صورة مهزولة بشكل فريد عن الفن والأدب.

ماذا يستطيع الأدب؟

في سيرته الذاتية، الصادرة بعد وفاته في 1873، يروي جون ستيوارت ملّ الانهيار العصبي الخطير الذي أصيب به في العشرين من عمره. صار «فاقد الحسّ بكلّ لذة كما بكلّ إحساس ممتع، في واحدة من تلك اللحظات من انحراف المزاج حيث كلّ الذي كان يروق في لحظات أخرى يصير عديم الطعم ولا يثير الاهتمام». كلّ أنواع العلاج التي جرّبها لم تكن ذات جدوى، واستقرّ اكتتابه على الدوام. استمرّ يؤدّي آلياً الحركات المعتادة، لكن دون إحساس بشيء. امتدّت هذه الحال لأليمة طوال عامين. ثمّ، شيئاً فشيئاً، انفرجت ويلعب كتابٌ قد قرأه ملّ مصادفة في تلك اللحظة دوراً فريداً في شفائه: إنّه ديوان شعر لوردسورث. وجد فيه التعبير عن إحساساته الخاصّة وقد تسامى بها جمال الأبيات. «بدت لي منبعاً منه أستقي الفرح الباطني، ومُتّع التعاطف والخيال، التي بمقدور كلّ الكائنات البشرية اقتسامها [...] كنت في حاجة إلى من يجعلني أحسّ أنّه يوجد في التأمل الهادئ لأشكال الجمال في الطبيعة سعادة حقيقية ودائمة. علّمني وردسورث إيّها ليس فحسب دون أن يصدّني عن تأمل العواطف العديدة ومصير الإنسانية المشترك، بل عمضاعفة اهتمامي بها.»

قريباً من مائة وعشرين عاماً بعد هذا، وجدت امرأة شابة نفسها حبيسة السجن، في باريس: تأمرت ضد المحتل الألماني، وقُبض عليها. شارلوت دلبو وحيدة في زنزانتهاء تخضع لنظام «الليل والضباب»، لذلك لا حق لها في الكتب. لكن رفيقتها في الطابق الأسفل تستطيع استعارة مؤلفات من المكتبة. فتضفر دلبو ضفيرة من خيوط استلتهها من غطائها وأصعدت بكتاب من النافذة. منذ تلك اللحظة، سكن فابريس دل دونگو [بطل رواية شارترية پارما لستندال] أيضاً زنزانتهاء. لا يتكلم كثيراً، لكنه يتيح لها كسر الوحدة. شهور بعد ذلك، في عربة المواشي بالقطار الذي يسوقها إلى [معسكر الاعتقال] أوشفيتز، اختفى، لكن دلبو تسمع صوتاً آخر، صوت ألسست كاره البشر [في مسرحية مولير] الذي يشرح لها مضمون الجحيم الذي تقصده ويوضح لها مثال التضامن. في معسكر الاعتقال، يزورها أبطال آخرون من لظامئين للمطلق: إلكترا، دوم جوان، أنتيگوني. بعد مدة بطول الأبد، تعود دلبو إلى فرنسا، وتكابد للعودة للحياة: ضوء أوشفيتز الساطع قد كسح كلّ وهم، ومنع كلّ خيال، وصرح بزيّف الوجوه والكتب... حتى اليوم الذي عاد فيه ألسست وجذبها بحديثه. اكتشفت شارلوت دلبو، أمام النهايات، أنّ شخوص الكتب يمكن أن يصبحوا رفاقاً موثوقين، فتكتب: «مخلوقات الشاعر هي أكثر حقيقة من مخلوقات اللحم والدّم لأنها غير قابلة للتفاد. لذلك هم أصدقائي، أولئك الذين بفضلهم نربط بالبشر الآخرين، في سلسلة الكائنات وفي سلسلة التاريخ»²².

لم أعش شيئاً بمثل درامية ما عاشته شارلوت دلبو، بل لم أعرف حتى عذابات الانهيار العصبي التي وصفها جون ستيوارت ملّ، غير أنّي لا أستطيع الاستغناء عن كلمات الشعراء، وحكايات لروائيين. يتيحون لي أن أمنح شكلاً للإحساسات التي أعانيها، وترتيب سيل الأحداث الصغيرة التي تشكّل حياتي. تجعلني أحلم، أو أرجف قلقاً، أو أياس. لما أغرق في الحزن، لا أستطيع أن أقرأ إلاّ النثر المتوهج لمارينا تسفيتايفا، كلّ شيء غير ذلك يبدو لي فاقد الطعم. في يوم آخر، اكتشف بُغداً من أبعاد الحياة كنت فحسب قد استشعرت من قبل وأتعرّف عليه مع ذلك فوراً كحقيقة: أرى ناستاسيا فيليپوفنا بعيني الأمير ميشكين، «أبله» دستوفسكي،

أمشي معه في شوارع سان بطرسبرغ الخالية، مدفوعاً بحتمى نوبة صرع وشيكة. ولا أتمالك نفسي من التساؤل: لماذا ينبغي لميشكين، أفضل الناس، الذي يحب الآخرين أكثر من نفسه، أن يُنهي حياته مُصاباً بالعتة، سجين مستشفى للأمراض العقلية؟ الأدب يستطيع الكثير. يستطيع أن يمدّ لنا اليد حين نكون في أعماق الاكتئاب، ويفقدنا نحو الكائنات البشرية الأخرى من حولنا، ويجعلنا أفضل فهماً للعالم ويعيننا على أن نحيا. ليس ذلك لكونه، قبل كل شيء، تقنية لعلاجات الروح؛ غير أنه، وهو كشفٌ للعالم، يستطيع أيضاً، في نهس المسار، أن يحوّل كلّ واحد منا من الدّاخل. للأدب دورٌ حيويّ يلعبه؛ لكنّه ليكون كذلك، ينبغي أخذه بهذا المعنى الواسع والقويّ الذي هيمن في أوروبا حتى نهاية القرن التاسع عشر وصار مُهمّشاً اليوم، بينما ينتصر تصوّر مُختزّل على نحو غير معقول. والقارئ العادي، الذي يستمرّ في البحث ضمن الأعمال التي يقرأها عن ما يمنح معنى لحياته، هو على صواب ضدّ الأساتذة، والنقاد، والكتاب الذين يقولون له إنّ الأدب لا يتحدّث إلّا عن نفسه، أو لا يُعلّم إلّا اليأس. إذا لم يكن على صواب، فسيكون محكوماً على القراءة بالزّول في أجل قريب.

الأدب، مثلما الفلسفة، مثلما العلوم الإنسانية، هو فكرٌ ومعرفةٌ للعالم النفسي والاجتماعي الذي نساكنه. والواقع الذي يطمح الأدب إلى فهمه هو، بكلّ ساطة (لكن، في الآن ذاته، لاشيء أكثر تعقيداً)، التجربة الإنسانية. لذا يمكن القول إنّ دانتي أو سرفنتيس يُعلّماننا عن الوضع البشري على الأقلّ مثلما يعلمنا أكبر علماء الاجتماع وعلماء النفس، وأنّه لا تعارض بين المعرفة الأولى والثانية. ذلك هو «الجنس المشترك» للأدب. غير أنّ له أيضاً «فصولاً نوعية». رأينا آنفاً أنّ مفكّري عصر الأنوار كما العصر الرومانسي قد حاولوا التعرّف عليها؛ لنستأنف اقتراحاتهم - باستكمالها باقتراحات أخرى.

تميّز أوّل فصل بين الخاصّ والعامّ، الفردي والكلّي. فالأدب، سواء بواسطة المونولوج الشعريّ أو بواسطة السرد، يجعلنا نحيا تجارب فريدة؛ أمّا الفلسفة، فتعالج مفاهيم. الأوّل يصون ثراء المعيش وتنوّعه، والثانية تفضّل التجريد الذي يتيح لها صياغة قوانين عامّة. ذلك ما يجعل نصّاً يتفاوت في سهولة استيعابه.

رواية الأبله لدستويفسكي يمكن أن يقرأها ويفهمها عددٌ لا يُحصى من القراء، من حقب وثقافات شديدة الاختلاف؛ لكنّ شرحاً فلسفياً لنفس الرواية أو لنفس أغراضها لن يكون مفهوماً إلا لقلّة متعودّة على هذا النوع من النصوص. غير أنّ أقوال الفيلسوف، بالنسبة للذين يفهمونها، تمتاز بعرضها لقضايا لا لبس فيها، في حين أنّ الانقلابات التي تعيشها شخصيات الرواية أو مجازات الشاعر تحتل تأويلات متعدّدة.

إنّ الكاتب بتصويره لموضوع، أو حدث، أو شخصية، لا يفرض أصروحة، بل بحث القارئ على صياغتها؛ إنّه يعرض بدل أن يفرض، وإذن يحفظ للقارئ حرّيته وفي الآن ذاته يحثّه على أن يصير أكثر فاعلية. وبواسطة استعمال إيحائي للكلمات، واستعانة بالقصص، والأمثلة، والحالات الخاصّة، يُحدثُ العمل الأدبي ارتجاجاً للمعنى، ويُحرّك جهازنا للتأويل الرمزي، ويوفّظ قدراتنا على التّداعي، ويثير حركة تتواصل ذبذباتها زمناً طويلاً بعد الاتّصال البدني. ليس بوسع حقيقة الشعراء أو حقيقة المؤرّخين الآخرين للعالم أن تطمح إلى نفس الاعتبار الذي لحقيقة العلم، لأنّها تحتاج لإثباتها إلى إقرار عدد كبير جداً من الكائنات البشرية، في الراهن وفي المستقبل؛ وبالفعل، فالإجماع العام هو الوسيلة الوحيدة لتبرير العبور من، كما قد نقول، «أحبّ هذا العمل الأدبي» و«هذا العمل الأدبي ينطق بالحقيقة». وعلى العكس، فخطاب رجل العلم، الذي يطمح إلى حقيقة المطابقة ويتخذ شكل الإثبات، بوسعه الخضوع لفحص فوري - وسيتمّ تفنيده أو تأكيده (مؤقّتاً). لسنا بحاجة إلى انتظار قرون، وسؤال قراء جميع البلدان لنعرف إن كان المؤلّف قد نطق بالحقّ أم لا. الأدلة المعروضة تستدعي هنا أدلة مضادّة: يتمّ الدخول في جدال عقلاني بدل الاقتصار على الإعجاب والاستيهام. قارئ ذلك النصّ أقلّ مجازفة بالخلط بين الافتتان وصواب الحقيقة.

إنّ فرداً في مجتمع من المجتمعات منغم، كلّ لحظة، في مجموع من خطبات تنبّئ له بمثابة بديهيت، وعقائد يلزمه الإذعن لها. إنّها الأفكار الشائعة في حقبة، أو الآراء المسبقة التي تُشكّل الرّأي العام، أو عادات الفكر، من مبتذلات ومسكوكات، يمكن تسميتها أيضاً «الإيديولوجيا المهيمنة»، أو أحكام مسبقة، أو

كليشيات. ومنذ عصر الأنوار، نعتقد أن ميزة الكائن البشري تتطلب منه أن يتعلم التفكير بنفسه، بدل الاقتصار على رؤية العالم الجاهزة التي يصادفها من حوله. لكن كيف التوصل إلى ذلك؟ يشير روسو في مؤلفه إميل إلى سيرورة التعلم هذه بعبارة «التربية السلبية» ويقترح إبعاد اليافع عن الكتب، لتجنبه كل إغراء بمحاكاة آراء الآخرين. غير أنه يمكن التفكير بشكل مختلف، لأن الآراء المسبقة، خصوصاً في أيامنا هذه، ليست في حاجة للكتب كي تستقر نهائياً لدى الفتى: لقد مرّ التلفزيون سلفاً من هنا! لكن الكتب التي قد يقتنيها يمكنها، بالمقابل، مساعدته على هجر البديهيّات الزائفة وتحرير ذهنه. وللأدب دور فريد يلعبه هنا: فهو، بخلاف الخطابات الدينية، أو الأخلاقية، أو السياسية، لا يصرخ نسقاً من التعاليم؛ ولهذا السبب، يفلت من أشكال الرقابة التي تُمارَس على الأطروحات المصوغة تصرّيحاً. إنّ للحقائق المزعجة - بالنسبة لجنس البشر الذي نتسب إليه أو بالنسبة لذواتنا نحن - حظوظاً أوفر لأن تبلغ التعبير والأفهام في عمل أدبيّ منها في مؤلف فلسفيّ أو علميّ.

في دراسة صدرت مؤخراً²³، اقترح الفيلسوف الأمريكي ريتشارد رورتي أن نصف بطريقة مغايرة إسهام الأدب في فهمنا للعالم. يرفض استعمال مصطلحات مثل «حقيقة» أو «معرفة» لوصف هذا الإسهام، ويؤكد أن الأدب لا يعالج جهلنا بقدر ما يُبَيِّننا من «عبادة الأنا»، بمعنى وهم الاكتفاء الذاتي. ويرى أن قراءة الروايات لا تشابه قراءة المؤلفات العلمية، أو الفلسفية، أو السياسية بقدر ما تشابه نمطاً من التجربة مغاير تماماً: تجربة اللقاء بأفراد آخرين. فمعرفة شخصيات جديدة مماثل للقاء أشخاص جدد، مع هذا الفارق أن بمقدورنا منذ الوهلة الأولى اكتشافها من الداخل، وكلّ فعل من وجهة نظر فاعله. وكلّما كانت تلك الشخصيات أقلّ شبهاً بنا، فهي توسّع من أفقنا، وإذن تثري عالمنا. هذا التوسّع الداخليّ (الشبيه من بعض الوجوه بذلك الذي يمدّنا به الرسم التشخيصي) لا يُصاغ في عبارات تجريدية، ولذا نجد كلّ هذا العناء في وصفه؛ إنه يمثل بالأحرى تضمين وعينا طرائق جديدة للوجود، إلى جانب تلك التي كنّا نمتلكها سلفاً. مثل هذا التعلم لا يغيّر محتوى ذهننا، بل الحايي نفسه، أي جهاز الإدراك بدل الأشياء المدركة. ما تمنحنا إياه

الروايات ليس معرفةً جسدسة، بل قدرة جديدة على التواصل مع كائنات مختلفة عتاً؛ وبهذا المعنى، فهي من نوع الأخلاق لا العلم. ولأفق النهائي لهذه التجربة ليس الحقيقة بل الحب، الشكل الأسمى للعلاقة الإنسانية.

أينبغي وصف الفهم الموسع للعالم الإنساني، الذي تؤدينا إليه قراءة رواية، بوصفه تصحيحاً لتمرکزنا على ذاتنا، كما يريده الوصف الإيحائي لرورتي؟ أو بوصفه عثوراً على حقيقة كُشِفَ جديدة، حقيقة قد يشاطرنا إياها أناس آخرون؟ مسألة المصطلحات لا تبدو لي ذات أهمية رئيسية، ما دمنا نقبل بالصلة المثينة القائمة بين العالم والأدب، وكذا الإسهام التوعوي للأدب بالنسبة للخطاب التجريدي. إن الحد، كما يلاحظ رورتي مع ذلك، يفصل النص الاستدلالي لا عن النص التخيلي، بل عن كل خطاب سردي، سواء كان تخيلياً أو حقيقياً، ما دام يصف عالماً إنسانياً خاصاً غير عالم الذات: المؤرخ، وعالم الإثنوغرافيا، والصحفي هم هنا في نفس جهة الكاتب الروائي. جميعهم يشتركون فيما يعتبره كانط، في فصل شهير من نقد ملكة الحكم، خطوة ضرورية للسیر نحو معنى مشترك، أي نحو إنسانيتنا الكاملة: «أن تفكر جاعلاً نفسك في موضع أي إنسان آخر»²⁴. أن تفكر وتحس متبناً وجهة نظر الآخرين، شخصيات حقيقية أو شخصيات أدبية، هو لوسيلة الوحيدة لتوجهنا نحو الكونية، ويتيح لنا إذن تحقيق نزعتنا. لذا ينبغي تشجيع القراءة بكل الوسائل - بما في ذلك قراءة الكتب التي ينظر إليها النقد الاحترافي بتعال، إن لم يكن باحتقار، منذ [رواية ألكسندر ديمس] الفرسان الثلاثة حتى هاري پوتير: فهذه الروايات الشعبية لم تجذب إلى القراءة ملايين اليافعين فحسب، بل فوق ذلك أتاحت لهم أن ينشؤوا لأنفسهم صورة أولى متناسقة عن العالم، ولنطمئن، فهذه الصورة الأولى ستقوم القراءات اللاحقة بتدقيقها وتعقيدها.

تواصل لا ينفد

الأفق الذي يندرج فيه العمل الأدبي، هو حقيقة الكشف المشتركة، أو إذا شئنا، العلم الموسع الذي نفضي إليه حين نلتقي بنصّ سرديّ أو شعريّ. أن يكون حقيقياً، بمعنى الكلمة هذا، هو المطلب المشروع الوحيد الممكن توجيهه له؛ لكن هذه الحقيقة، كما قد رأى رورتي، مرتبطة بتربيته الأخلاقية. أريد العودة هنا، للمرة الأخيرة، إلى صفحة من التاريخ الأدبي وأقرأ من جديد مراسلة شهيرة حول الصلة بين الأدب والحقيقة والأخلاق، بين جورج صاند وگوستاف فلوبر. الكاتبان صديقان جيّدان، ويتبادلان المودة العظيمة والاحترام؛ غير أنّهما يعلمان أيضاً أنّهما لا يشاطران بعضهما نفس التصوّر عن الأدب. في نهاية 1875 وبداية 1876، شهوراً قليلة قبل وفاة صاند، تبادلّا رسائل عديدة فريدة حول هذا الموضوع، يحاولان فيها تحديد طبيعة خلافهما.

قد توهم قراءة سطحية أنّ صاند تطلب من الأدب الخضوع للأخلاق، في حين يستند فلوبر إلى الصلة بالحقيقة وحدها. صحيح أنّ بعض عبارات صاند تميل بها نحو هذا الاتجاه، مُظهرة إياها مهمومة أساساً بالأثر الذي تُحدثه أعمالها في القارئ، فتقول: «أنت ستصنع الأسى وأنا سأصنع المواساة» لأنّه يجعل الذين يقرأونه أكثر

حزنًا، بينما هي تريد أن يكونوا أقلّ تعاسة. يردّ فلوير على هذا بأن هدفه هو الحقيقة وحدها. «سعيّ دائماً للتّفاذ في روح الأشياء» لو بقي الخلاف بين الاثنين عند هذا الحدّ فسيكون ضئيل الأهميّة، وسنميل إلى الحكم لصالح فلوير: إنّ قارئ اليوم، بدوره، لا يعتقد أنّ وظيفة الأدب الأولى هي تخفيف الدّموع، لكنّ صائد تتخطى سريعاً نقطة الانطلاق هذه لتركيز التّقاش حول موضوعين أكثر جوهرية: موقع الكاتب في عمله وطبيعة الحقيقة التي يصل إليها.

تأسف صائد أنّ لا يكون فلوير يُبدي نفسه أكثر في كتاباته، والحال أنّه قد جعل عدم تدخّله في الرّواية مبدأ لا يحتمل أيّ استثناء. لكن صائد تلخّ من جديد: ليس غيابُه من العمل الأدبي في الحقيقة هو ما تؤاخذُه عليه، فضلاً عن كونها تعتقد هذا الغياب مستحيلاً، إذ لا يمكن فصل الشّيء المرثي عن الرّؤية الذاتيّة. «لا يمكن أن توجد فلسفة في روحا دون أن تظهر للّور [...] الرّسم الحقيقيّ مفعم بالروح الذي يحرك الفرشاة.» في ردوده، يوافق فلوير على هذا: يعلم جيّداً أنّه لا تنقصه القناعات، وأنّ عمله متشبّع بها. ويعلم أيضاً أنّ هم الحقيقة لديه سيكون له حتماً أثرٌ أخلاقيّ. «ما دام شيءٌ من الأشياء حقّاً، فهو جيّد. وحتى الكتب الفاحشة ليست لأخلاقية إلّا لأنّها تنقصها الحقيقة.» ما يطلبه بالمقابل، هو أن لا يُنطق بهذه الأفكار بحروفها، بل فقط أن يُوحى بها السرد: القارئ هو من ينبغي له أن يستخرج من «كتاب أخلاقته المتضمّنة فيه». وإذا لم يحصل هذا، فذلك لأنّ الكتاب رديٌّ أو القارئ بليد!

غير أنّ نقد صائد الحقيقي هو في موضع آخر: ما لا ترضى عنه ليس هو غياب فلوير من عمله، بل هو طبيعة حضوره. إنّها تحبّ وتقدر صديقها؛ لكنّها لا تتعرّف على الرّجل الذي تعرفه في ذاك الذي يسكن أعماله. «غدّ نفسك بالأفكار والعواطف المدّخرة في رأسك وفي قلبك [...] مجموع حياتك من المحبّة، والرّعاية، والطّيبة اللّطيفة والبسيطة، تبرهن على كونك الفرد الأكثر اقتناعاً. لكن، ما أن تمارس الأدب حتّى تريد، لست أدري لماذا، أن تكون رجلاً آخر.» ما تؤاخذُه به، في الجملة، هو أنّه لا يفسح مجالاً داخل عمله لكائنات مثله، وبالتالي لا ينتج لوحة أمينة عن العالم. مطلب صائد الأوّل هو أيضاً يتعلّق بالحقّ، لا بالخير. غاية

الأدب هي تمثيل الوجود الإنساني؛ لكن الإنسانية تتضمن كذلك المؤلف وقارئه. «ليس بمقدورك التجرد من هذا التأمل؛ لأن الإنسان هو أنت، والناس، هو القارئ. ومهما حاولت، فسردك حديث بينك وبينه.» السرد مُتضمن بالضرورة في حوار ليس الناس موضوعاً له فحسب، بل أيضاً من شخصياته الرئيسية.

صائد تعلم أن فلووير يتغيا فوق كل شيء الحقيقة، حتى لو كانت الطريق التي اختارها تمر باشتغال عنيد على الشكل، ذلك أنه يؤمن بتناغم سرّي، وعلاقة تلازمية بين الشكل والمحتوى. وهذا هو منهجه: «لما أكتشف تجانساً رديئاً للحركات أو تكراراً في إحدى عباراتي، أكون متأكداً أنني أتخبط في الزيف.» هذا المنهج ليس هو ما يزعجها؛ فالتقاش، بالنسبة لها، ليس موضوعه طريقة البحث بل طبيعة الاكتشاف. فالكتاب أمثال فلووير «أكثر منّي معرفة وموهبة. غير أنني أعتقد أنه تنقصهم، وأنت خصوصاً، رؤية ثابتة وواسعة عن الحياة.» لوحة الحياة التي تبرز من كتب فلووير غير مكتملة الحقيقة لأنها مفرطة في التصلب، وإذن أحادية النغمة. «أريد أن أرى الإنسان كما هو. ليس خيراً أو شراً، إنه خير وشرير. لكن يوجد شيء آخر أيضاً، الفروق الدقيقة، هذه الفروق التي هي بالنسبة لي غاية الفن.» وتعود للفكرة نفسها في رسالتها التالية: «الواقع الحقيقي مزيج من الجمين والدميم، والكامد والتألق.»²⁵ وأولئك الذين نعتوا في تلك الحقبة بالواقعيين قد قاموا بخيار يخون الواقع، إذ يخضعون لمواضعة اعتبارية تملّي عليهم أن لا يمثلوا إلا الوجه الأسود من العالم. ليس الخير هو ما يخونه العدميون بل الحق.

منبع هذا الاختلاف بين صائد وفلووير يوجد في فلسفتهم ذاتها. فلووير الذي كان ييوح لعشيقته لويز كولّي «أمقت الحياة»، أو أيضاً «الحياة لا تُطاق إلا بشرط أن لا توجد فيها أبداً»²⁶، هو شبيه في نظر جورج صائد «بكاثوليكي يتوق إلى التعويض»، لأنه يمقت الحياة ويلعنها كأنما كان يوجد بديل آخر، كأن «الحياة الحقيقية» توجد في مكان آخر. يتصرّف فلووير كأنما ينتظر وجوداً أفضل في العالم الآخر. لقد تنبّى دون أن يجهر بذلك المذهب الأوغسطيني القائل بأن العالم المنظور ساقط والناس جديرون بالاحتقار، بينما الخلاص يتظرهم في مدينة الله. أما صائد، فهي تزداد كل يوم حباً للحياة الراهنة. «أما أنا، فأريد أن أسعى حتى

آخر أنفاسي، لا بيقين أو مطلب أن أجد في مكان آخر موقعاً جيداً، بل لأن متعتي الوحيدة هي البقاء مع أهلي في الطريق الصاعد.» هذه الحكمة تجلب «السعادة، أي القبول بالحياة أيّاً كانت». ذلك ما تسمّيه صائد أيضاً «المتعة البريئة للحياة من أجل الحياة»²⁷.

الخلاف إذن ليس بين هدفين مختلفين: فلوبيير وصائد يعترفان كلاهما بأن الأدب يطمح قبل كل شيء إلى شكل من الحقيقة. إنّما الخلاف هو في الحكم على حقيقة المسرودات. هنا ليس بمقدور فلوبيير إلا أن يلاحظ عجزه عن الذهاب أبعد. «ليس بمستطاعي تغيير رؤيتي!» «عبثاً تعطيني، لا يمكن أن يكون لي طبع آخر غير طبعي.» صائد بدورها يلزمها التسليم بالأمر: لا نختار تماماً بحرية أن نكون ما نحن عليه، وحتى بين شخصين على هذا القدر من المراعاة لبعضهما كما هو الحال بين فلوبيير وصائد ليس بمقدورهما بسهولة اتباع النصائح المتلقاة. والتوصيات التي توجهها لفلوبيير تبدو لنا، لهذا السبب، على شيء من السطحية. غير أنّ فلوبيير، لما شرع في كتابة [قصة] قلب بسيط أخرج مراسلته: «ستتعرفين على تأثيرك المباشر.» من خلال هذه المراسلة القديمة، يمكن أن نرى أنه، رغم الاختلافات في التأويل، يتأكد عند المتراسلين نفس التصوّر عن الأدب: إنه يتيح فهماً أفضل للوضع الإنساني ويحوّل من الدّاخل كينونة كلّ واحد من قرائه. أليس من مصلحتنا نحن تبني وجهة النظر هذه؟ وتحرير الأدب من المشدّد الخائق المحتبس فيه، والمصنوع من ألعاب شكلائية، وشكاوى عديمة، وتمركزاً أنانياً على الذات؟ يمكن لهذا بدوره أن يجذب النقد نحو آفاق أوسع، بإخراجه من لغيتو الشكلائي الذي لا يهتم إلا نقاداً آخرين وفتحهم على السّجال العريض للأفكار الذي تشترك فيه كلّ معرفة للإنسان.

أهم أثر لهذا التحوّل يتعلّق بالتعليم المدرسي للأدب، لأنّ هذا التعليم يتوجّه إلى كلّ الأطفال، وعبرهم إلى غالبية الكبار؛ لذا أريد العودة لهذا الموضوع في الختام. لا ينبغي بعد الآن أن يكون هدف تحليل الأعمال الأدبية في المدرسة هو إيضاح المفاهيم التي قد استحدثها هذا العالم أو ذاك من علماء اللسانيات، أو هذا المنظور للأدب أو ذاك، وإذن أن تُعرض علينا النصوص بوصفها استخداماً للغة أو

للخطاب؛ هدف التحليل سيكون الوصول بنا إلى معناها - لأننا نصادر على أن هذا المعنى سيقودنا، بدوره، نحو معرفة للإنساني، هذه المعرفة التي تهّم الجميع. وكما قد قلت، هذه الفكرة ليست غريبة على شطر كبير من دنيا التعليم نفسها؛ لكن يلزم الانتقال من الأفكار إلى الفعل. نقرأ في تقرير وضعته جمعية أساتذة الأدب: «دراسة الأدب تعني دراسة الإنسان، علاقته بنفسه وبالعالم وعلاقته بالآخرين». وبتعبير أدق، تحيل دراسة العمل الأدبي على دوائر متحدة المركز تزداد اتساعاً: دائرة الكتابات الأخرى لنفس المؤلف، دائرة الأدب القومي، دائرة الأدب العالمي؛ لكن سياقها النهائي، والأهم، هو الوجود الإنساني ذاته. جميع الأعمال الأدبية العظيمة، أيّاً كان منشأها، تدعو التفكير إلى سلوك هذا السبيل.

أيّ طريقة ينبغي سلوكها لبسط معنى عمس أدبي واستجلاء فكر الفنان؟ كلّ «المناهج» جيدة، بشرط أن تظلّ وسيلة بدل أن تتحوّل إلى غاية في حدّ ذاتها. وعوض أن أقدم وصفة، أريد أن أعطي هنا مثلاً. مثال الدراسة التي خصّصها الناقد الأمريكي جوزيف فرانك لدستويشسكي؛ مجلّد من هذه المونوغرافيا (المتضمنة في مجموعها خمسة مجلّدات) قد تُرجمت إلى الفرنسية تحت عنوان *Dostoïvski. Les années miraculeuses*²⁸. هذا الكتاب هو أولاً سيرة، لأنّ بعض الأحداث في حياة دوستويشسكي تلعب دوراً أساسياً في فهم تكوّن آثاره ولكن أيضاً في فهم معناها: وشوك إعدامه في السّاحة العامة والأربع سنوات من السّجن مع الأشغال الشّاقة التي تلت ذلك؛ وكذا الظروف المادّية الصّعبة التي عرفها أو أشكال العنف الجسدي التي عاينها. وهو أيضاً تاريخ اجتماعي معمّق بروسيا وأوروبا في منتصف القرن التاسع عشر. ينضاف إلى هذا جدال فلسفي: عاش دوستويشسكي في وسَطٍ حيث أفكار هيغل وفيورباخ، وبتام وجون ستيوارت ملّ تعتبر حقائق مطلقة؛ استوعبها بدوره قبل أن يحاربها. وتأتي إضاءة أخرى تماماً خلفه دوستويشسكي من مسودات غزيرة وكراسات تتيح، بواسطة مقارنة تكوينية، فهم التكوين المتدرّج لمعني أعماله الأدبية. وأخيراً، فإنّ فرانك، الذي لا يجهل شيئاً عن مختلف الأبحاث الشّكلانية أو البنيوية في التحليل النصّي، يعرف استخدامهما لإيصالنا بطريقة أفضل إلى فكر مؤلفه.

ندرك بالتدريج أنّ كلّ هذه المنظورات أو المقاربات لنصّ من النصوص، ليست بتاتاً متنافسة، بل متكاملة - بشرط التسليم منذ البداية بأنّ الكاتب هو ذاك الذي يلاحظ ويفهم العالم الذي يعيش فيه، قبل أن يجسّد هذه المعرفة في قصص، وشخوص، وإخراج، وصُور، وأصوات. وبعبارة أخرى، الأعمال الفنيّة تنتج المعنى، والكاتب يفكر؛ ومهمّة الناقد هو تحويل هذا المعنى وهذا الفكر إلى اللّغة المشتركة في عصره - وليس مهمّاً معرفة الوسائل التي يبلغ بها هدفه. «الإنسان» و«الأعمال»، «التاريخ» و«البنية» كلّها مُرَحَّبٌ بها! والنتيجة حاضرة هنا: دراسة فرنك، بإتاحتها إدراج فكر المؤلف في السّجل اللّانهائي الذي موضوعه هو الوضع البشري، تصير درساً في الحياة.

ينبغي أن نفهم هنا الأدب بمعناه الواسع. متذكّرين حدود المفهوم المتغيّرة تاريخياً. لن نتخذ عقيدة راسخة من مسلّمات الرومانسيين المتأخّرين، القائلة بأنّ لا شيء مشترك بين نجم الشعر وقتامة «الروبورتاج الكوني» الذي تنتجه اللّغة العادية. إنّ الاعتراف بمزايا الأدب لا يجبرنا على الاعتقاد بأنّ «الحياة الحقيقية، هي الأدب» أو أنّ «كلّ شيء يوجد في العالم ليفضي إلى كتاب»، عقيدة تنبذ من «الحياة الحقيقية» ثلاثة أرباع البشرية. والنصوص التي تُسمّى اليوم «غير أدبية» لديها الكثير ممّا تعلّمنا إيّاه؛ ومن جهتي، كنت سأجعل من الإجماليّ، في درس اللّغة الفرنسيّة، دراسة الرّسالة، غير التّخيلية للأسف، التي بعثت بها جيرمين تيّون من سجن فريين إلى المحكمة العسكريّة الألمانيّة، في الثالث من يناير 1943. إنّها من الرّوائع بإنسانيّتها حيث الشّكل والمعنى لا ينفصلان؛ سيتعلّم منها التلاميذ الكثير²⁹. «إنّهم يغتالون الأدب» (إذا ما استعرنا عنوان رسالة انتقادية صدرت مؤخّراً) لا بدراسة نصوص «غير أدبية» في المدرسة، بل بجعل الأعمال الأدبية مجرد أمثلة إيضاحية لرؤية شكلانية، أو عدميّة، أو أنانية للأدب.

نرى أنّ الأمر ينعلّق هنا بطموح أقوى ممّا هو مُقترح اليوم على التلاميذ. والتغيّرات التي يستلزمها سيكون لها فضلاً عن ذلك نتائج مباشرة على فرص التشغيل المتاحة لهم. ولأنّ موضوع أدب هو الوضع الإنساني نفسه، فالذي يقرأ الأدب ويفهمه سيصير، لا متخصصاً في التّحليل الأدبيّ، بل عارفاً بالكانن البشري.

فأتي مدخل إلى فهم أشكال السلوك والأهواء البشرية أفضل من الاستغراق في أعمال الكتاب العظام الذين كابدوا هذه المهمة منذ ألوف السنين؟ وبالنتيجة، أي إعداد أفضل لكل المهن القائمة على العلاقات الإنسانية؟ إذا كانت هذه هي طريقة فهم الأدب وطريقة توجيه تدريسه، فأتي عون أثمن يمكن أن يجده الطالب المقبل في الحقوق أو في العلوم السياسية، والعامل المقبل في الحقل الاجتماعي أو المشتغل بالعلاج النفسي، أو المؤرخ، أو عالم الاجتماع؟ أن يكون الأساتذة هم شكسبير وسوفوكليس، دستوفسكي وبروست، أليس هذا الاستفادة من تدريس فذ؟ ألا نرى أن طبيباً مقبلاً، كي يمارس مهنته، سيتعلم من هؤلاء الأساتذة أكثر مما سيتعلمه من المباريات في الرياضيات التي تحدّد اليوم مصيره؟ هكذا ستجد الدراسات الأدبية موقعها بين الإنسانيات، إلى جانب تاريخ الأحداث والأفكار، وجميع هذه المواد الدراسية ستجعل الفكر يتقدّم بتزوّدتها من الأعمال الأدبية كما من النظريات، من الأفعال السياسية كما من التحولات الاجتماعية، من حياة الشعوب كما من حياة الأفراد.

إذا ما قبلنا بهذه القصيدة للتعليم الأدبي، الذي لن يعود صالحاً فحسب لمجرد إعادة إنتاج أساتذة للأدب، فمن اليسير التفاهم حول الروح الذي ينبغي أن يحرك هذا التعليم: يلزم إدراج الأعمال الأدبية في الحوار العظيم بين البشر، الذي بدأ في غياهب العصور ولا يزال كلّ واحد منا، مهما صَغُر قدره، يشترك فيه. كتب بول بنيشو: «في هذا التواصل الذي لا يتفد، القاهر للأمكنة والأزمنة، يتأكد المدى الكوني للأدب»³⁰. علينا، نحن الكبار، يقع واجب تبليغ الأجيال الجديدة هذا الميراث الهش، هذه الكلمات التي تُسعف على حياة أفضل.

هوامش

في غياب إشارة معاكسة، فمكان النشر هو باريس

- 1 S. Doubrovsky, T. Todorov (sous la dir. de), *L'Enseignement de la littérature*, Plon, 1971, p. 630.
- 2 J. Rousset, *Forme et signification*, José Corti, 1962, p. II.
- 3 Cf. T. Todorov, *Théories du symbole*, Seuil, 1977; M. H. Abrams, *Doing Things with Texts*, New York, Norton, 1989; L. Ferry, *Homo aestheticus*, Grasset, 1990.
- 4 Platon, *Philèbe*, 60c
- 5 A. Shaftesbury, *Characteristics of Men, Matters, Opinions, Times*, éd. de 1790, t. 3, p. 150-151.
- 6 G. Vico, *Science nouvelle*, Nagel, 1953, § 821.
- 7 L. Ferry, *op. cit.*, p. 96.
- 8 G. E. Lessing, *Laokoon*, *Werke*, Bd. 5/2, Francfort, Deutscher Klassiker Verlag, 1990, ch. 9, p. 85.
- 9 G. E. Lessing, *Hamburgische Dramaturgie*, *Werke*, Bd. 6, Francfort, Deutscher Klassiker Verlag, 1985, § 34, p. 348, p. 350; § 30, p. 332.
- 10 *Ibid.*, § 15, p. 257; § 49, p. 426.
- 11 B. Constant, *Oeuvres*, Gallimard, 1979, *Journal intime*, p. 232; *Réflexions sur la tragédie*, p. 908, 920.
- 12 B. Constant, « Esquisse d'un essai sur la littérature du XVIII^e siècle », *Oeuvres complètes*, Tübingen, M. Niemeyer, 1995, t. III, vol. I, p. 527.
- 13 G. de Staël, *De la littérature considérée dans ses rapports avec les*

- institutions sociales*, Flammarion, 1991, p. 66.
14. Ch. Baudelaire, *Oeuvres complètes*, 2 vol., Gallimard, 1975-1976, t. II, p. 333.
 15. *Ibid.*, p. 127; *Correspondance*, 2 vol., Gallimard, 1973, t. I, p. 336-337; *OC*, t. II, p. 421, p. 407; t. I, p. 182.
 16. *Ibid.*, t. II, p. 457, p. 153.
 17. Lettre à Louise Collet du 15-16. 5. 1852, *Correspondance*, Gallimard, 1980, t. II, p. 91.
 18. O. Wilde, « Le déclin du mensonge », *Oeuvres*, Gallimard, 1996, p. 791, « Le critique », *Ibid.*, p. 865, p. 853.
 19. K. Ph. Moritz, *Schriften zur Aesthetik und Poetik*, Tübingen, M. N. emeyer, 1962, p. 112.
 20. M. Larionov, in. *Une avant garde explosive*, Lausanne, L'âge d'homme, 1978, p. 72-73; K. Malevitch, *Ecrits*, t. I, Lausanne, L'âge d'homme, 1993, p. 102; B. Livchits cité par J. -Cl. Marcadé, *L'Avant-Garde russe 1907-1927*, Flammarion, 1995, p. 6.
 21. J. S. Mill, *Autobiography*, Boston, Houghton-Mifflin Company, 1969, ch. 5, p. 81, 89; tr. fr. *Mes Mémoires*, 1874, p. 127, 141, 142.
 22. Ch. Delbo, *Spectres, mes compagnons*, Berg International, 1995, p. 5.
 23. R. Rorty, « Redemption from Egotism. James and Proust as spiritual exercises », *Telos*, 3:3, 2001.
 24. E. Kant, *Oeuvres philosophiques*, t. II, Gallimard, 1985, § 40, p. 1073.
 25. G. Flaubert-G. Sand, *Correspondance*, Flammarion, 1981, p. 510-530.
 26. Lettre du 21.10.1851, p. 10, lettre du 5.3.1853, p. 255, *Correspondance*, *op. cit.*
 27. Lettre du 12.01.1876, p. 516; lettre du 8.12.1874, p. 486; lettre du 5.11.1874, p. 483, G. Flaubert-G. Sand, *Correspondance*, *op. cit.*
 28. J. Frank, *Dostoïvski Les années miraculeuses*, Arles, Actes-Sud, 1998.
 29. G. Tillon, *Ravensbrück*, Seuil, 1988, p. 35-40.
 30. « Une communication inépuisable », *Mélanges sur l'oeuvre de Paul Bénichou*, Gallimard, 1995, p. 228.

فهرس

تمهيد.....	5
اختزال عبثي للأدب.....	11
ما وراء المدرسة	17
نشوء علم الجمال الحديث	23
جماليات عصر الأنوار	29
من الرومانسية حتى الحركات الطليعية.....	35
ماذا يستطيع الأدب؟	43
تواصل لا ينفد	49
هوامش	57

المعرفة الأدبية

غناء العيطة

الجزء الأول

حسن لمحي

غناء العيطة

الجزء الثاني

حسن لمحي

شعرية الترجمة

الجزء الأول

الملحمة اليونانية في الأدب العربي

الأدب والارتباب

عبد لفتاح كيليطو

الخطاب الموازي للقصيدة العربية المعاصرة

نبيل منصر

الحق في الشعر

محمد نيس

الأدب والغربة

دراسة بنيوية في الأدب العربي

عبد الفتاح كيليطو

الشعر الحديث في المغرب العربي

الجزء الأول

يوسف السوري

الشعر الحديث في المغرب العربي

الجزء الثاني

يوسف السوري

الاستعارات والشعر العربي الحديث

سعيد الحنصالي

الكتابة والتصوف عند ابن عربي

خالد بلقاسم

في الشعر المغربي المعاصر

دورة أحمد المجاطي الأكاديمية

مجموعة باحثين

العرب وتاريخ الأدب

تمودج كتاب «الأعاني»

أحمد بوحسن

البلاغة والسنطة

عبد الجليل ناظم

القراءة التفاعلية

دراسات لنصوص شعرية حديثة

إدريس بللميح

أبو العلاء المعري أو متاهات القول

هند الفتاح كيليطو

أدونيس والخطاب الصوفي

خالد بلقاسم

سطوة النهار وسحر الليل

عبد المجيد جحفة

قنديل أم هاشم (قراءة وتحليل)

محمد الصالح

بداية ونهاية (قراءة وتحليل)

سعيد الحنصالي

مدخل إلى نظريات الرواية

بيير شارتيه / ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي

لسان آدم

عبد الفتاح كيليطو / ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي

كتابة المحو

محمد بنيس

عبد الكريم غلاب

بيليوغرافية بأعماله وما كتب عنه

(1947-1993)

د. صالح جواد طعمة

المقامات

السرد والأنساق الثقافية عند الهمداني والحريري

عبد الفتاح كيليطو / ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي

نقد الشعر في المغرب الحديث

عبد الجليل ناظم

مجهول البيان

محمد مفتاح

دفة الجرد = B.0187 -

لو ساءلت نفسي اليوم لماذا أحبّ الأدب، فالجواب الذي يتبادر
عفوياً إلى ذهني هو : لأنّه يعينني على أن أحيّا . لم أعد أطلب
منه، كما في الصبّا، تجنّبي الجراح التي قد تصيبني من لقائي
بأشخاص حقيقيين؛ إنّهُ عوّض استبعاد التّجارب المعيشة،
يجعلني أكتشف عوالم على اتّصال بتلك التّجارب ويتيح فهماً
أفضل لها . لا أعتقد أنّي وحدي أنظر إليه بهذه النّظرة . فالأدب،
الأكثر كثافة وإفصاحاً من الحياة اليومية، لكن غير المختلف
جذرياً، يوسّع من عالمنا، ويحثّنا على تخيل طرائق أخرى
لتصوّره وتنظيمه . نحن مجبولون من كلّ ما تمنحنا الكائنات
البشرية الأخرى : والدانا أولاً، ثمّ أولئك الذين من حولنا؛ الأدب
يفتح إلى اللّانهاية إمكانيّة هذا التّفاعل مع الآخرين وهو إذن
يُثرينا لا نهائياً . يزوّدنا بإحساسات لا تعوّض تجعل العالم
الحقيقي أشحن بالمعنى وأجمل . ما أبعدهُ عن أن يكون مجرد
متعة، وتلهية محجوزة للأشخاص المتعلّمين، إنّهُ يتيح لكلّ واحد
أن يستجيب لقدره في الوجود إنساناً .

قام بمسح هذا الكتاب ضوئياً

محمد بكاي

طالب وباحث بميدان تحليل الخطاب

ماجستير في النقد الأدبي المعاصر ما بعد البنيوية
في المغرب العربي.

قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة تلمسان، الجزائر.

تم إتمام هذا العمل:

في تونس، يوم الثلاثاء، 24 نوفمبر- تشرين الثاني 2009.

20.56 ليلاً بتوقيت الجزائر.